من الشرق
والغرب

قصة بني إسرائيل

• من معاني القرآن •

بقلم : عبد الرحيم فوده

مقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم ، والحمــد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على أشرف المرسـلين سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين ٠

« وبعــد »

فقد توخيت فى هذا الكتاب أن استخلص قصة بنى اسرائيل فى تاريخهم القديم الطويل ، كما تفهم من القرآن ليجد القراء فى ضوء الاسترشاد بأحداثهم تفســير الآيات الموجزة المركـزة التى تذكرهم بمواقفهم مع الله ، ومع الأنبيــاء الذين بعثهم الله فيهم ، ومع الناس الذين اتصلوا بهم أو عاشوا بينهم ، وسـيجد القراء فى هذا الجزء التأويل المعقول والتفسـير المقبول لما اشـتبه على كثير من الآيات الخاصة بهؤلاء ٠٠

والله أسأل أن يجنبنا الزيغ فى الرأى وأن يسدد خطانا على الحق والصراط المستقيم ٠

عبد الرحيم فوده

يابنى اسرائيل اذكروا نعمتى التى أنعمت عليكم وأوفوا بعهدى أوف بعهدكم وإياى فارهبون، وآمنوا بما أنزلت مصدقا لما معـــكم ولا تكونوا أول كافر به ولا تشتروا بآياتى ثمنا قليلا واياى فاتقون ، ولا تلبســوا الحق بالبـــــاطل وتكتموا الحق وانتم تعلمون واقيموا الصلاة وآتوا الزكاة واركعوا مع الراكعين •

قصة بنى اسرائيل :

اسرائيل وبنو اسرائيل

قيل أن كلمة « اسرا » معناها فى العبرية « عبد » أو « صفوة » وكلمة « ايل » معناها « الله » ، فمعنى اسرائيل عبد الله أو صفوة الله ، وهو لقب يعقوب بن اسحق بن ابراهيم عليهم السلام ٠

اما بنو اسرائيل فهم أولاد يعقوب وذرياتهم الذين كثروا وانتشروا فى جوانب هذه الأرض ، واستشرى معهم الفساد فى كل البلاد التى نزلوا بها ٠٠

ولد لاسرائيل « يعقوب » كما هو معروف اثنا عشر ولدا ذكرا ٠ منهم يوسف عليه السلام ، فكان منهم مع أخيهم الصغير أن حسدوه ، وحقدوا عليه ، وكادوا له ٠ لأن أباه كان يؤثره عليهم بكثير من الحب ، فألقوه فى غيابة الجب ، ليخلوا لهم وجه أبيهم ، « وجاءوا أباهم عشاء يبكون قالوا ياأبانا انا ذهبنا نستبق وتركنا يوسف عند متاعنا فأكله الذئب وما أنت بمؤمن لنا ولو كنا صادقين » « وجاءوا على قميصه بدم كذب » ليخدعوه ويقنعوه بأنهم صادقون فقال « بل سولت لكم أنفسكم أمرا فصبر جميل » ٠

وقد كان من أمر يوسف أن خرج من البئر متعلقا بدلو ، ثم بيع لعزيز مصر بثمن بخس دراهم معدودة ، ثم تقلبت به الأحوال حتى صار أمينا على خزائنها ٠ أو وزيرا للمالية والاقتصاد والتموين فيها ٠

وكان من أمر اخوته أن قدموا اليه مع أبيهم وقالوا « تالله لقد آثرك الله علينا وان كنا لخاطئين ، قال لاتثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم وهو

أرحم الراحمين » ثم عاشوا فى ضيافة مصر وعاش بعدهم أبناؤهم وذرياتهم حتى أخرجوا منها مع موسى عليه السلام ..

ثم كان منهم حتى الآن مالم يكن لجنس يطلق عليه اسم الانسان ، وسنقرأ ونسمع أنباء هؤلاء ممن « لا يخفى عليه شىء فى الأرض ولا فى السماء » .

خليط من الناس ..

قد يقع فى روع القارىء أن اليهود الموزعين فى أنحاء العالم الآن من بنى اسرائيل ، وأن كلمة اسرائيل التى نقلوها من معناها الأصلى وجعلوها اسما للأرض التى احتلوها من فلسطين تعبر بصدق عن جنس سكان هذه الأرض الآن ..

والواقع الذى تنطق به الوقائع التاريخية . والحقائق العلمية أن أكثر اليهود لاتصلهم باسرائيل . ولا بالارض التى أطلقوا عليها اسم اسرائيل . رابطة نسب أو سبب ، وان هؤلاء الذين تسللوا الى الارض المقدسة خلف الاستعمار الانجليزى . وبمحرك الدولار الامريكى ليسوا جميعا من جنس بنى اسرائيل ، وانما هم خليط من الناس كما يقرر ذلك علماء الاجناس .

فقد احتكم هؤلاء العلماء الى المقياس المتفق عليه للتمييز بين السلالات البشرية ، وهو يقوم على طائفة من الصفات الجسمية . ثم انتهوا بعد التطبيق والمقارنة والموازنة الى أن اليهود ينتمون الى جميع الاجناس .

وقد بسط ذلك الدكتور محمد عوض محمد فى كتابه « الاستعمار والمذاهب الاستعمارية » فليرجع اليه من شاء .

أما تعلق اليهود على اختلاف أجناسهم بفلسطين فليس مرجعه الحنين الروحى الى هذه الارض ، فقد كان بنو اسرائيل قبل أن يكون هؤلاء يقولون لموسى « ان فيها قوما جبارين ، وانا لن ندخلها أبدا ماداموا فيها فاذهب أنت وربك فقاتلا انا هاهنا قاعدون » .

ولكنها المنافع والمطامع. والآمال التى تمنيهم بها الصهيونية العالمية، وتخدعهم بها السياسة الاستعمارية ، وسيجدون فيها باذن الله مصارعهم يوم يتحقق فيهم قوله تعالى « فاذا جاء وعد الآخرة ليسوءوا وجوهكم وليدخلوا المسجد كما دخلوه أول مرة وليتبروا ما علوا تتبيرا » .

خصائصهم العامة

واليهود مع اختلاف أجناسهم تجمعهم خصائص نفسية مشتركة ، واتجاهات عقلية عامة ، وسلوك فى الحياة تمليه المنافع والمطامع ، وتوجهه هذه الخصائص والصفات .

ولو عرفهم العرب والمسلمون كما يصورهم القرآن . أو كما عرفهم الاوربيون بصفة خاصة ، والمسيحيون بصفة عامة ، لأشعروهم بما يجب أن يشعروا به فى بلادهم ، ولكان لهم من وراء ذلك أن تتبخر الاوهام والاحلام التى يطوف بها خيال هؤلاء حول فلسطين .

ولكنهم غفلوا عنهم ، وتجاهلوهم ، وتساهلوا معهم ، ونسوا ان الله حذرهم اياهم وقال « لتجدن أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود والذين أشركوا » فكان منهم ومن هؤلاء ما كان .

كان من العرب والمسلمين أن تقطعت بهم الاسباب ، وصاروا شيعا وصارت أرضهم قطعا ، وصار أمرهم فى بلادهم الى ماصار اليه أمرهم فى الاندلس حين عبر عنه الشاعر بقوله :

صار بكل بقعة مليك وصاح فوق كل غصن ديك

هذا فى حين آل أمر الصهيونية العالمية الى لواء تتطلع اليه أعين الموزعين من اليهود فوق كل أرض : وتحت كل سماء ، وفى حين آل أمر الصهيونية والاستعمار الى كتلة موحدة ، تتأهب للفتك بهم جميعا .

ولكن رحمة الله بالعرب والمسلمين مستهم بروح منه، فنفضوا عنهم غبار الغفلة ، ونهضوا لمناهضة الاستعمار والصهيونية ، ولا يزال وعد الله أمام أعينهم يذكرهم بطريق الخير والحياة الطيبة « وعد الله الذين آمنوا

منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم فى الارض كما استخلف الذين من قبلهم ٠ وليمكنن لهم دينهم الذى ارتضى لهم وليبدلنهم من بعـــد خوفهم أمنا » ٠

سماتهم وصفاتهم

« يا بنى اسرائيل اذكروا نعمتى التى أنعمت عليكم وأوفوا بعهدى أوف بعهدكم واياى فارهبون » ٠

كلمة «نعمة» تشمل كل ما أنعم الله به من سعة ٠ ودعة ٠ ومال ٠ ولين عيش ، وقد أنعم الله على بنى اسرائيل بنعم خاصة لم يذكروها بما ينبغى لها من ذكر وشكر ، وسيأتى الحديث عنها ٠

«وعهد الله» يحتمل كما تقدم الكلام فيه أن يكون المراد به أوامره ووصاياه ، وأن يكون المراد به الميثاق الذى تم الاتفاق عليه بين الناس والله عن طريق رسله اليهم — أو عن طريق العقل لانه حجة عليهم ٠

أما الرهبة فمعناها الخـــوف ، وقد قيل : لان ترهب خير من أن ترحم ، بضم التاء فى الكلمتين ، فمعنى واياى فارهبون ٠ ارهبونى ولا ترهبوا غيرى ، وذلك يشعر بأنهم يخشون الناس ولا يخشون الله ، كما يشعر قوله «اذكروا نعمتى التى أنعمت عليكم» بأنهم لم يكونوا يذكرونها، أو كانوا يذكرونها بغير ما ينبغى من شكر المنعم المتفضل بها ، وكما يشعر قوله « وأوفوا بعهدى أوف بعهدكم » بانهم كما نعتهم الله فى موضع آخر « ينقضون عهد الله من بعد ميثـــاقه ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل ويفسدون فى الارض » ٠

ولهذا تخلى الله عنهم، ووكلهم الى الناس يضطهدونهم فى كل أرض، ويطاردونهم فى كل مكان « واذ تأذن ربك ليبعثن عليهم الى يوم القيامة من يسومهم سوء العذاب » ٠

هذه بعض ســـماتهم وصفاتهم التى نلمحهـا فى أول خطاب لبنى اسرائيل نطالعه فى القرآن ٠

فهم لا يشكرون ما يسدى اليهم ، ولا يحافظون على عهد يعقد معهم، ولا يستقيمون فى معاملة الناس الا على أساس الخوف منهم ٠

أول الكافرين

« وآمنوا بما أنزلت مصدقا لما معكم ولا تكونوا أول كافر به ولا تشتروا بآياتى ثمنا قليلا واياى فاتقون » ٠

ما كان معهم : هو التوراة

وما أنزله الله مصدقا لما معهم هو القرآن

ومعنى أن القرآن مصدق للتوراة انه موافق لها فيما اشتملت عليه من أحكام الله وأصول شرعه ، فهو لا يكذبها فيما أنزله الله فيها ، وان كان مهيمنا عليها كما يقول الله فى موضع آخر « ومهيمنا عليه » ٠

واشتراؤهم بآيات الله ثمنا قليلا ٠٠ ويقصد به استبدالهم ما كانوا يحرصـــون عليه من الرياسة فى قومهم ، وما كان يجبى اليهم من زروع وثمار ، أو يهدى اليهم ٠ أو يرشون به لقاء تحريفهم الكلم عن مواضعه ، وتسهيل ما يصعب على قومهم من التكاليف التى أمرهم الله بها ٠

لقد كان المنطق يقتضيهم ــ وقد وجد الكتاب الذى أنزله الله على محمد مصدقا لما معهم من التوراة ــ أن يؤمنوا به ، لان الايمان بما فيها يقتضى الايمان بما فيه ، اذ هو مصدق لها ، فلا معنى للايمـــان بها مع الكفر به ٠

ومن ثم طالبهم الله أن يؤمنوا به ، ونهاهم أن يكونوا أول كافر به٠ تعريضا بما كان منهم على خلاف ما كان يتوقع وينتظر ، فقد كانوا « من قبل يستفتحون على الذين كفروا فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به » وقال لهم يشدد النكير عليهم لا تستبدلوا بآياتى أى ثمن ٠ فانه ــ مهما يكن ــ قليل ، لا يبرر الاثم والجرم بتحريف آياتى ٠ أو كتمانهـــا ٠ أو خلطها بغيرها مما لم ينزل فى التوراة « فويل للذين يكتبون الكتاب بأيديهم ثم يقولون هذا من عند الله ليشتروا به ثمنا قليلا فويل لهم مماكتبت أيديهم وويل لهم مما يكسبون » ٠

وهكذا نرى فى هذه الآية ، التناقض الذى يقعون فيه حين يكفرون بالقرآن ويزعمون أنهم يؤمنون بالتوراة ، والتجارة الخاسرة اذ يستبدلون بآيات الله ثمنا مهما يكن شأنه فانه تافه حقير ، هذا الى المبادرة بالكفر حيث كان يجب أن يكونوا أول المؤمنين ٠

سر هذين التعبيرين

الرهبة كما قدمنا هى الخوف

والتقوى مأخوذة من الوقاية ، وهى الافراط فى المحافظة والصيانة كما بينا عند الحديث عن المتقين ٠

وقد ختم الله الآية الاولى التى خاطب بها عامة بنى اسرائيل بقوله «واياى فارهبون» ، وختم الآية الثانية التى يبدو انها موجهة الى خاصتهم بقوله « واياى فاتقون » ، فما سر هذين التعبيرين ؟

ان التعبيرين بالنظام الذى قام عليه كل منهما يفيدان الاختصاص ، فانك تقول : «أدعوك» فيفيد كلامك أن دعاءك تعلق بمن تخاطبه ، ولا يمنع أنك تدعوه وتدعو غيره ، أما اذا قلت «اياك أدعو» فان دعاءك يكون مختصا به ٠ مقصورا عليه ، لا يتعلق بغيره ٠

وكذلك الحال فى قوله تعالى لعامة بنى اسرائيل «واياى فارهبون» وقوله لخاصتهم «واياى فاتقون» فانه يدل على طلب تخصيص الله بالخوف عند العــامة ، وطلب تخصيصها بالتقوى عند الخــاصة ٠ وهم الاحبار والعلماء والرؤساء ٠

واذا كانت التقوى تفيد معنى زائدا على الخوف ٠ وهو عمل ما يقى العذاب ، بامتثال أوامر الله واجتناب نواهيه ، كان فى التعبيرين اشارة الى أمرين :ـ

الاول : ان عامة بنى اسرائيل يشتركون مع خاصتهم فى معنى عام وهو الخوف من الناس دون الله ٠

الثانى : ان خاصتهم ـ وهم علماؤهم وزعماؤهم ـ يزيدون على عامتهم اثما آخر وظلمــا أكبر ٠ لانهم ـ وهم أهــل علم ـ يحرفون الكلم عن مواضعه ، ويلبسون الحق بالباطل ويكتمون الحق وهم يعلمون ٠

تلبيس ابليس

« ولا تلبسوا الحق بالباطل وتكتموا الحق وأنتم تعلمون »

اللبس ـ بفتح اللام ـ هو الخلط ، تقول لبست الشىء بالشىء بمعنى خلطته به ، ولابست فلانا حتى عرفته بمعنى خالطته ٠

وقد عرفنا الحق والباطل فيما سبق •

فالمعنى ـ والخطاب لخاصة بنى اسرائيل كما قدمنا ـ لا تكتبوا فى التوراة ما ليس منها فيختلط الحق الذى أنزله الله فيها بالباطل الذى تكتبونه وتنسبونه الى الله ، فان ذلك ـ على ما فيه من اختلاق الكذب والافتراء على الله ـ يجعل الحق مشتبها على الناس بالباطل • فيزلون ويضلون ، وتكونون سبب زللهم واضلالهم ، وقد يكون من وراء هذا الخلط بين الحق والباطل أن يخفى الحق وتلتبس معالمه ، وبذلك تكونون قد أخفيتموه وكتمتموه عن عمد وقصد ، وعن فهم وعلم ، وذلك اثم لا عذر فيه ولا عفو عنه ، فقد يعذر الجاهل حين يرتكب ظلما ، أو يقترف اثما ، أما العالم الذى يعمد الى التضليل ، ويقصد الى التدليس والتلبيس • فلا عذر له فيما يقدم عليه من اثم وظلم •

وكان أحبار اليهود ـ مع ذلك ـ ينكرون أنهم يجدون صفة محمد عليه السلام فى التوراة وهى مكتوبة فيها ، ويمحون منها بعض الاحكام ويكتبون بعضها على خلاف حقيقتها ، ومن ثم كانوا يكتمون الحق وهم يعلمون •

وهذا ـ دون شك ـ عمل من أعمال الشيطان ، بدليل قوله تعالى « انما يأمركم بالسوء والفحشاء وأن تقولوا على الله مالا تعلمون » بل هو أكبر وأخطر من عمل الشيطان ، لانهم : « يلبسون الحق بالباطل ويكتمون الحق وهم يعلمون » •

ولكننا لم نجد عنوانا ينطبق على ما عرفوا به من تدليس وتلبيس أكثر من « تلبيس ابليس » وان كان ذلك اسما لكتاب حافل شامل للعلامة ابن الجوزى •

التواء الطبع

« وأقيموا الصلاة وآتو الزكاة واركعوا مع الراكعين »

هذه هى النتيجة الطبيعية لما سبق من الاوامر التى خاطب الله بها بنى اسرائيل •

فان تذكرهم ما أنعم الله به عليهم يستوجب الايمان والشكر والبر بمن يستحق البر ٠

والوفاء بعهده يقتضى امتثال أوامره واجتنـاب نواهيه ، والتمسك بالميثاق الذى أخذه الله عليهم عن طريق رسله اليهم٠ أو عن طريق عقولهم التى جعلها حجة عليهم ، وقد أخذ عليهم العهد اذا جاءهم رسول مصدق لما معهم أن يؤمنوا به وينصروه ٠

والخوف من الله دون غيره يستلزم الشجاعة فى اعلان الحق ٠ والجهر به ٠ والدفاع عنه ٠

والايمان بالتوراة يستوجب الايمان بالقرآن لأنه جاء مصدقا لما فيها ، والايمان بالقرآن يستلزم الايمان بالرســول الذى أنزل عليه ، لأنه ــ أى القرآن ــ المعجزة الدالة عــلى أن ما يبلغـه النبى عن الله حق وصدق ٠

بل ان الايمان بالتوراة يستوجب الايمان بمحمد عليه الســلام ٠ لأنهم يجدونه مكتوبا فيها ، ويجدون فى أحواله وأعماله وصفاته وسماته ما يوافق ويطابق الذى يجدونه عنه فيها ٠

بل انهم هاجروا الى بلاد العرب ، وآثروا الاقامة فيهـا مدفوعين بالأمل فى أن يدركوا عهده ، ويســتنصروه على الوثنيين الطغـاة الذين شتتوهم وشردوهم ٠

لهذا كان طبيعيا ــ لو كان فى طبيعتهم الاســتقامة ــ أن يقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة ، ويركعوا مع الراكعين ٠٠ أن يدخلوا فى الاسلام ، ويقيموا شعائره ، ويجاهدوا فى سبيل الله تحت لوائه ٠

ولكن التواء الطبع ٠ وفساد الطوية ، لا يســتقيم معهما المنطق القويم ، ولا يستبين أمامهما الصراط المستقيم ٠

الربا ٠٠ لا الزكاة ٠٠

الزكاة فى الأصل النمو والزيادة ٠

تقول زكا المال والزرع بمعنى نما ، ثم اتسع استعمال الكلمة ٠ وقيل « رجل زكى » بمعنى زائد فى الخير والفضل ، ومن ذلك قوله تعالى

« فلا تزكوا أنفسكم هو أعلم بمن اتقى » أى لا تمدحوها وتنسبوها الى الزكاء أو الزكاة . وهما زيادة فى الخير والفضل .

ثم صارت الكلمة تطلق على ما يخرجه الانسان من ماله ليزكيه به وينميه ، فان الزكاة سبب فى نمو المال وزيادته كمـــا يقول الله تعالى « يمحق الله الربا ويربى الصدقات » .

وتطلق كلمة الزكاة كذلك على صفوة الشيء والجيد منه ، وفى ذلك اشعار بأن ما تقدمه الى مستحقيه من الفقراء والمساكين ينبغى أن يكون من الجيد الذى يحرص عليه ، لا الردىء الذى يزهد فيه ، فقد قال تعالى « ولا تيمموا الخبيث منه تنفقون ولستم بآخذيه الا أن تغمضوا فيه » ، أى لا تقصدوا الى الخبيث الردىء من أموالكم لتنفقوا منه وتتصدقوا به ، وهو اذا قدم اليكم لم تأخذوه الا على مضض منه ، واغماض عنه ، وقد جاء فى الحديث « الله طيب لا يقبل الا الطيب »

ومن ثم يحسن عند أداء الزكاة الجمع بين هذين المعنيين ، بأن يكون القدر الذى يخرجه الانسان تمام النصاب من خيار أمواله .

ولعلك لم تنس أن الأمر فى هذه الآية موجه الى بنى اسرائيل ، وان كانت العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب ـ ولكن .. كيف يمتثلونه وقد جبلوا على الحرص والبخل والشح و « أخذهم الربا وقد نهوا عنه وآكلهم أموال الناس بالباطل » ، وكيف يحسن عند أهل الربا ما يحسن عند اهل الزكاة ؟

ان الربا زيادة تؤخذ على رأس المال من المقترض أو المدين ، والزكاة زيادة تدفع عن رأس المال للفقراء والمحتاجين ، وبينهما من الفرق ما بين الرذيلة والفضيلة . والشح . والجود « ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون » « وما آتيتم من ربا ليربو فى أموال الناس فلا يربو عند الله . وما آتيتم من زكاة تريدون وجه الله فأولئك هم المضعفون » « يمحق الله الربا ويربى الصدقات » .

أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم وأنتم تتلون الكتاب أفلا تعقلون (٤٤) واستعينوا بالصبر والصلاة وانها لكبيرة الا على الخاشعين (٤٥) الذين يظنون أنهم ملاقو ربهم وأنهم اليه راجعون (٤٦) يابني اسرائيل اذكروا نعمتي التي أنعمت عليكم وأني فضلتكم على العالمين (٤٧) واتقوا يوما لاتجزى نفس عن نفس شيئا ولا يقبل منها شفاعة ولا يؤخذ منها عدل ولا هم ينصرون (٤٨) ٠



مخالفة اقوالهم لافعالهم

« أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم »

كلمة البر على قلة حروفها تسع كل معروف وخير .

فالاحسان الى الوالدين بر ، ولهذا يقال فلان بر بوالديه أو بار بهما — بفتح الباء فيهما — أى محسن اليهما .

وصلة الفقراء والأقربين بر ، والصدق فى الحديث بر ، والحج الى بيت الله بر ، ومن ثم يقال حج مبرور أى مقبول ومصحوب بخير كثير .

وتلاوة الكتاب قراءته ، فان أصل التلاوة مأخوذ من التلو وهو الاتباع . تقول : تلوت عليا بمعنى تبعته ، وتتالت الأمور أى تبع بعضها بعضا ، وتقول مازلت أتلوه حتى أتليته بمعنى مازلت أتبعه حتى سبقته وجعلته يتلونى ويصير تابعا لى .

والاستفهام فى الآية ليس على الحقيقة ، وانما هو لتقرير ماكان عليه الأحبار من بنى اسرائيل ، اذ كانوا يقولون مالا يفعلون ، ويأمرون الناس بالبر وسعة المعروف والخير دون أن يأخذوا بذلك أنفسهم ، بل كانوا يتركونها كأنهم ينسونها .

وايراد الاستفهام على هذه الصورة وبهذا الاسلوب يتضمن مع ذلك التوبيخ لهم على ماكانوا يقعون فيه من التعارض بين أقوالهم وأعمالهم ، والتناقض بين كلامهم وأفعالهم ، وذلك مما يستوجب مقت الله وغضبه « كبر مقتا عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون » كما يتضمن التعجب من أن يكون هذا حالهم وهم يقرءون التوراة وفيها الامر بالبر . والنهى عن الخيانة والغدر . والوعيد على مخالفة القول للفعل . ونعت النبى الذى سيتمم الله به النبوة والرسالات .

وقوله تعالى : « أفلا تعقلون » زيادة توبيخ لهم ، كأنهم بهذا السلوك الشائن المقيت لا عقل لهم .

مشقة الطاعة عليهم

« واستعينوا بالصبر والصلاة وانها لكبيرة الا على الخاشعين ، الذين يظنون انهم ملاقوا ربهم وأنهم اليه راجعون » .

علم الله من بنى اسرائيل ــ عامتهم وخاصتهم ــ أن طبيعتهم يشق عليها احتمال ما أمرهم به من شكر نعمه . والوفاء بعهده . والخوف منه دون غيره . والايمان بالقرآن . والأمانة فى اعلان الحق . وعدم التدليس والتلبيس فى التوراة .. ثم الدخول مع المسلمين فيما أخذوا به أنفسهم من اقامة شعائر الاسلام والعمل بشريعته التى أودع الله فيها كل أصول الديانات والشرائع السماوية .

وقد أرشدهم الى الطريق الذى يسهل عليهم امتثـــال هذه الأوامر واحتمال هذه التكاليف . وقبول هذا الدين العام ، وهو الجمع بين الصبر والصلاة ، فان الصبر يكبح جماح الشهوات والنزوات ، ويعين على احتمال المتاعب واستسهال المصاعب ، والصلاة كما يقول الله « تنهى عن الفحشاء والمنكر » ، وكلمة المنكر تسع كل ما ينكره شرع الله . وطبع الناس . وقد كان صلى الله عليه وسلم « اذا حزبه أمر فزع الى الصلاة فيجـد فيهـــا مايخفف خطبه . ويفرج كربه » .

ولكن هذا العلاج ــ أيضا ــ لا ينجع ولا ينفع فى بنى اسرائيل فان الصلاة والاستعانة بالصلاة أو بالصبر والصلاة شاقة كذلك عليهم ، لأنهم لا يخشون الله ولا يخشعون أمامه مع ما عرف عنهم من الجبن والخوف من الناس .

انما تسهل الصلاة وتسهل الاستعانة بالصلاة . وبالجمع بين الصبر والصلاة ، على الذين يخشون الله ، ويشعرون بالذل أمامه . والخضوع لأمره ، ويعتقدون أنهم سيلاقونه ، وسيرجعون اليه ، وسيحاسبون أمامه على ما قدموا من خير وشر ، وليس هؤلاء كذلك . أو ليس أكثرهم كذلك .

تعليل وتأويل

لماذا كانت الصلاة . والاستعانة بالصبر والصلاة شاقة ثقيلة على غير الخاشعين ، مع أن الخشوع نفسه ثقيل ، فاذا أضيف اليه ثقل الصبر وثقل الصلاة كان على النفس أكثر ثقلا ومللا .

لقد أجيب عن ذلك بأن توقع تحقيق ما ادخره الله للصابرين على الشدائد أو على الصلاة وما يلزم لها من شروط ومجاهدة نفس • يهون على الانسان كل شاق ، ويسهل له كل صـــعب ، وقد ضرب المثل فى ذلك بعامل يعهد اليه بعمل ، ويوعد عليه بأجر زائد مغر ، فانه يزاوله برغبة ونشاط وانشراح صدر ، بل قد يستلذ هذا العمل بالأمل الذى يتطلع الى تحقيقه ، ويجد فى تصوره نشوة وجذلا ، على حد قول الشاعر •

لأستسهلن الصعب أو أدرك المنى فما انقادت الآمال الا لصابر

ولو تأملنا معنى قول الله « الذين يظنون أنهم ملاقو ربهم وأنهم اليه راجعون » لوجدنا فيه هذا التعليل للتسهيل المستفاد من قوله ســبحانه « وانها لكبيرة الا على الخاشعين » •

بقى أن نعرف لماذا عبر بكلمة « يظنون » فى قوله تعــالى « الذين يظنون أنهم ملاقو ربهم » مع أن المراد هو العلم واليقين اذا كان المراد بلقاء ربهم هو البعث ، فكيف عبر بالظن ــ وهو ادراك الطرف الراجح ــ عن اليقين وهو العلم الجازم ؟

انك تدرك السر اذا تأملت معنى « ملاقو ربهم » وفهمته على معنى أنهم ملاقة ثوابه ، وهو ما تتوقعه وترجوه نفوس الخاشعين الذين يدعون ربهم خوفا وطمعا • ولا تجزم بوجوب الحصول عليه والوصول اليه ، اذ أن المؤمن لفرط خوفه من الله لا يطمئن الى أنه قد ضمن رضوانه وثوابه ، بل يتطلع اليه ويرجوه •

هذا الى أن الظن قد يوضع موضع اليقين • كما فى هذه الآية اذا فسر لقاء ربهم بالبعث ، فانه لاسبيل الى الشك فيه عند المؤمن ، وكما فى قول النابغة : « فان مظنة الجهل الشباب » فان الظن هنا بمعنى اليقين •

مواجهة الحقائق

بعد هذه الأصول العامة التى طالب الله بها بنى اسرائيل • ورأينــا من خلالها ماتنطوى عليه طبائعهم من الكفر والغدر والمكر • ولبس الحق بالباطل • وكتمان الحق وهم يعلمون أنه حق • و • و • الى آخر ما ذكره من سماتهم وصفاتهم التى تشف عنها الآيات السابقة ، سنرى فيما سيأتى

عرضا تفصيليا للنعم التى كفروها ولم يشكروها ، وللمواقف المنكرة التى تدمغ تاريخهم بطابع الجحود ٠ ونقض العهود ٠ والافســاد فى الأرض ٠ والحرص على الحياة ٠ والتكالب على جمع المال ٠ مع الشــح والبخل ٠ و « أخذهم الربا وقد نهوا عنه » و ٠ و ٠ الى آخر ما سنرى ٠

وقبل أن ندخل فى تفصــيل ذلك يحسن أن نقدم بين يدى هذا الموضوع اشارة تاريخية الى المعالم البارزة فى حياة هؤلاء ٠

لقد عرفنا أن أول عهد بنى اسرائيل بمصر كان حين صــار يوسف عليه السلام أمينا على خزائنها ٠ وما تخرجه أرضها من الغلات والخيرات ، وكان ذلك فى عهد العمالقة ٠ وهم الذين شغلوا تاريخ مصر فيما بين الأسرة الرابعة عشرة الى الاسرة الثامنة عشرة التى خرج منها أحمس وطردهم من مصر ٠

فقد أرسل يعقوب « اسرائيل » أولاده الى مصر ومعهم الجمال والحمير لشراء قوت أهلهم بعد أن احسوا خطر المجاعة ، فلما رآهم يوسف عرفهم دون أن يعرفوه ، ثم رجعوا بالطعام دون أن يدفعوا الثمن على أن يعودوا اليه بأخيهم من أبيهم ، وكان شقيقا ليوسف عليه السلام ٠٠ ولما عادوا دبر يوسف حيلة لابقاء اخيه عنده ، فأمر بأن يدس فى رحله وعاء ، ثم يؤذن مؤذن بأنهم سارقون ، فقالوا من وجد فى رحله الوعاء أخذ به جراء على سرقته ، وهذه هى الرحلة الثانية ٠

ثم رجعوا الى أبيهم وقالوا « يا أبانا ان ابنك سرق وما شهدنا الا بما علمنا » فقال : « يابنى اذهبوا فتحسسوا من يوسف وأخيه ولا تيأسوا من روح الله » ٠ ولما قابلوا يوسف وظهر لهم أمره وأمرهم قالوا « تالله لقد آثرك الله علينا وان كنا لخاطئين » ٠

ثم عادوا الى ابيهم بقميص يوسف وألقوه على وجهه فارتد بصيرا ، ثم رحل الجميع الى مصر ٠

فى خدمة الغزاة

وجد بنو اسرائيل بمصر فى ظل أخيهم ضــيافة كريمة ٠ وحرية واسعة ، ثم عملوا من بعده فى خدمة الغزاة من العمالقة أو الهكسوس أو ملوك الرعاة كما يسميهم التاريخ ٠

وقد خيروا فى أول أمرهم ــ كما تذكر التوراة ــ فى الأرض التى ينزلون بها ، فقالوا انهم رعاة ماشية ، واختاروا ــ أو اختار لهم يوسف ــ أرض « جاسان » فى شمال بلبيس ، لأنها أرض مراع كما يحبون ، ولأنها تبعدهم عن مخالطة أهل البلاد ٠ والاندماج فيهم ٠ والامتزاج بهم ، اذ أنهم كانوا ــ ولا يزالون ــ يؤثرون الاقامة فى جهات خاصة بهم ، وقد يكون السبب فى ذلك ما يقال من نفور الناس منهم ٠

ثم تحررت مصر بقيادة « أحمس » من حكم العمالقة أو الهكسوس ، وعاد زمام أمرها الى أبنائها فى عهد الأسرة الثـــامنة عشرة ، فبقى بنو اسرائيل كما كانوا منذ دخلوها فى عهد الأسرة السادسة عشرة ٠

ثم ظهر منهم مايريب ، ويستوجب الحيطة والحذر ٠ والرقابة ٠

ثم بدأ اضطهادهم فى عهد رعمسيس الثانى ، فسخرهم فى الأعمال الشاقة دون أجر ، واستخدمهم فى بناء مدينتى « رعمسيس » و « فيثوم » وفى بناء مدينة ثالثة كانت تعرف باسم « برعمسيس » ومعناه بيت أو قصر رعمسيس ، كما استخدمهم فى تعبيد الطرق ٠ وصنع « الطوب » ٠

واذا كان هذا هو الاضطهاد الأول الذى عاناه هؤلاء ٠ فان الاضطهادات التى لاقوها وعانوها من البابليين والآشوريين واليونان والرومان ، ومن كل شعب حلوا به فى كل مكان وزمان تشهد بأن لمصر بعض العذر قبل أن نذكر سبب اضطهادهم فيها ٠

طابور خامس ٠٠

لم يذكر القرآن شيئا عن عمل بنى اسرائيل فى الفترة التى أقاموها بمصر قبل أن يضطهدهم فرعون وآل فرعون ، وانما ذكر نعمة الله عليهم اذ أنجاهم من آل فرعون ، ونعما أخرى أسبغها عليهم فلم يقابلوها بما تستحق من شكر ، وانما تلقوها بما يتلقى به اللئيم احسان الكريم ٠٠

ذلك أن القرآن يذكر الحادثة أو القصة بالقدر الذى تســـتفاد منه العبرة ويقتضيه المقام ، وليس من مقاصده أن يربط الحوادث أو أجزاء القصة ليكون وسيلة تسلية ٠ أو تزجية للفراغ ٠

وقد رجعت الى التاريخ لأعرف عمل هؤلاء فى الفترة الطويلة التى نعموا فيها بالاقامة فى مصر ، فوجدت ما يشبه أن يكون تعليـــلا مقبولا للعذاب الذى حاق بهم من فرعون وآله ٠

يقول الدكتور « هندريك فان لون » فى كتابه الجنس البشرى الذى طبعته ووزعته « الشعب » : وكان المصريون ينفرون أشد النفور ، ويضمرون أشد المقت لليهود الذين وفدوا على مصر من بلاد « كوش » يلتمسون المأوى بعد تجوالهم الطويل فى الصحراء ، وهم الذين ساعدوا الغاصب الأجنبى فرضوا أن يستخدمهم جباة للأموال ٠

ويقول فى موضع آخر من هذا الكتاب « فلما اجتاح الهكسوس مصر سعى اليهود الى خدمة الغزاة الجدد ، ومن ثم تركوهم ينعمون فى مراعيهم آمنين ، وتمكن المصريون بعد جهاد طويل من اخراج الهكسوس من وادى النيل ، وعند ذلك حلت باليهود أيام عصـــيبة ، اذ نزل بهم المصريون الى مرتبة العبيد ، وأجبروهم على العمل فى تعبيد الطرق وبناء المعابد ، وقد استحال على اليهود الهرب لأن الجنود المصريين كانوا يحرســـون حدود البلاد » ٠

وقد ذكر فضيلة المرحوم الشيخ عبد الوهاب النجار أن رعمسيس الثانى هو الفرعون الذى اضطهد بنى اسرائيل ، وانه ـ أى فرعون ـ كان يخشى أن يكونوا مع أعدائه ٠

وبعبارة هذا العصر ٠ كان يخشى أن يكونوا هم الطابور الخامس فى مصر ٠

ليسوا كما يتوهمون ٠٠

« يا بنى اسرائيل اذكروا نعمتى التى أنعمت عليكم وأنى فضلتكم على العالمين » ٠

الفضل ٠ الزيادة ، فهو ضد النقص ٠

والعالم ٠ من معانيه ٠ الكثير والجم الغفير ، تقول رأيت عالما من الناس أى جمعا كثيرا ٠

وقد امتحن الله بنى اسرائيل بنعم كثيرة ، فكان منهم البطر والأشر ، وفهموا بما فيهم من أثرة و « أنانية » أن الله اصطفاهم واجتباهم وجعلهم خير شعب فى هذه الأرض •

كأن الله ــ وهو فوق أن يتأثر بما يتأثر به الخلق ــ قد تأثر بهذا العنصر على ما كان عليه من أوضار وأقذار ، فجاملهم وجعلهم كما يزعمون « شعبه المختار » •

ولو كانوا يفهمون الأشياء على سلامتها واستقامتها لعرفوا قدر أنفسهم ، ولأدركوا أن الله اذا كان قد فضلهم على كثير من الخلق فليس معنى ذلك أنهم خير الخلق •

فان الفضل هو الزيادة ، وقد زادوا على غيرهم بكثرة الأنبياء الذين بعثوا فيهم، لأن حاجتهم الى الاصلاح كانت أكثر من حاجة غيرهم ، اذ لامعنى لوجود مصلحين بين قوم صالحين ، وانما يلتمس المصلحون حيث يكثر الفساد ، وتكون الحاجة ماسة الى الاصلاح •

لقد فضلهم الله على العالمين بذلك ، وبما سنرى بعد ذلك مما سيتحدث عنه القرآن ، ولكن هذا لا يقتضى أنهم خير العالمين كما يفهمون ويزعمون ، وانما خيرهم وأبرهم هم الذين يقول الله فيهم بصريح اللفظ « كنتم خير أمة أخرجت للناس » ويقول لهم « وجاهدوا فى الله حق جهاده هو اجتباكم » •

ان خير الناس هم الذين يجدون فى دينهم فضائل كل دين ، ويفرض عليهم دينهم أن يؤمنوا بالأنبياء والرسل من كل دين ويقول الله فيهم « وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيداً » •

ادعاء كاذب

« واتقوا يوما لا تجزى نفس عن نفس شيئا ولا يقبل منها شفاعة ولا يؤخذ منها عدل ولا هم ينصرون » •

كلمة العدل والكلمات التى تؤخذ منها أو تشبهها مثل الاعتدال والتعديل • والمعدلة • ترجع الى معنى المساواة أو التسوية •

وكانت العرب تقول : اللهم لا عدل لك ـ بفتح العين ـ ويعنون أنه ليس له مثيل ، ولا شبه يضاهيه أو يساويه .

وتقول أنا لا أعدل بشوقى شاعرا آخر ، يمعنى أنى لا أسوى به أحدا من الشعراء .

وقد فسر العدل فى هذه الآية بمعنى الفدية والبـــدل ، لما فيهما من معنى المساواة والمعادلة والمبادلة .

وأصل الشفاعة من الشفع وهو ضم شيء الى شيء كان فردا ليصير به اثنين ، ومن ذلك قولك شفعت الركعة بمعنى جعلتها اثنتين ، وشفعت الى فلان وأنا شافعه وشفيعه بمعنى انضممت اليه وصرت عونا له ، ومن ذلك قول الشاعر :

مضى زمن والناس يستشفعون بى فهل لى الى ليلى الغداة شـــفيع

وأصل النصر العون ، تقول نصرته على عدوه ، بمعنى أعنته عليه ، وتناصر القوم ، أعان بعضهم بعضا ، واستنصرت قومى ، طلبت نصرهم ومعونتهم .

يقول الله لبنى اسرائيل ـ وان كان الحكم عاما لجميع الناس ـ اعملوا ما يقيكم عذاب يوم لا تغنى فيه نفس عن نفس شيئا ، ولا تؤخذ من انسان فدية لتحميه من العذاب . أو تنجيه من العقاب ، ولا يتقدم فيه قوى لنصرة ضعيف ، انه يوم الجزاء « يوم لا يجزى والد عن ولده ولا مولود هو جاز عن والده شيئا » .

وقد كان بنو اسرائيل يزعمون أن آباءهم وأنبياءهم سيشفعون لهم ، ومن ثم نرى فى هـــذه الآية التعريض بهذا الادعاء . وبيـــان أنه محض افتراء .

تحديد النسل ..

ذكرنا ـ أو أشرنا الى ما كان من ريبة المصريين فى بنى اسرائيل عند أول عهدهم بهم ، وما كان من هؤلاء مع الغزاة حتى وقع فى خلد فرعون وآله انهم طابور خامس .

ويضيف بعض المفسرين والمؤرخين سببا آخر الى هذه الأسباب التى أدت الى اضطهاد بنى اسرائيل وتسخيرهم فى بناء المدن وتعبيد الطرق . وصنع اللبن « الطوب » وما الى ذلك من الأعمال الشاقة ...

ذلك أن عددهم كان يتزايد بكثرة التناسل والتوالد ، حتى أصبحت كثرتهم مع ما أحاط بهم من ظلال الريب والشبهات مظنة خطر يهدد كيان الدولة وسلامتها ، فخشى الملك أن يتحزبوا ضده ، ويتألبوا عليه وعلى آل مصر مع العدو الخارجى ، ورأى أن تسخيرهم فى الأعمال الشاقة يقلل من نسلهم ، ويهون عليه أمرهم ، ويقيه ويقى البلاد شرهم ، ولهذا وكل بهم من يتعبهم حتى لا يجدوا سبيلا الى الراحة فلا يتوالدون ولا يتزايدن .

ولكن هذا العلاج أيضا لم ينجع ولم ينفع ـ فيما يبدو ـ فقد ظلوا ـ مع ذلك ـ يكثرون .

ثم حدث من الأمر ما عصف بالبقية الباقية من الصبر .

فقد تحدث الكهنة ـ كما يذكر المفسرون ـ بأنه سيولد من بنى اسرائيل من يكون على يديه زوال فرعون . وضياع ملكه .

وانتهى النبأ الى الملك فأمر بقتل من يولد من أبنائهم . واستبقاء من تولد من بناتهم ، وأمر جنوده والقائمين بالأمر فى البلاد أن يلقوا بكل ذكر من أبناء بنى اسرائيل فى النهر ليموت غرقا فيه .

وفى هذه الأيام العصيبة والمذبحة الرهيبة . ولد لبنى اسرائيل أمل

جديد ، وتداركتهم رحمة الله ــ من حيث لا يشعرون فجعلت من المولود الجديد حبل النجاة والحياة ٠

لقد ولد موسى بن عمران بن قاهث بن لاوى بن يعقوب عليه السلام ٠

بعيدا عن العيون

ورأت أم موسى ــ وكان اسمها يوكابد ــ أن تخفى ولدها بعيدا عن العيون ، حتى لا يقع فى أيدى من يطلبون أطفال بنى اسرائيل لقتل الذكور منهم ٠

وظلت تخفيه ثلاثة أشهر بين قلق عليه وارق من أجله ، ثم خافت أن يفتضح أمرها ٠ وينكشف سرها ، وكادت تبدى به لولا ربط الله على قلبها وألهمها ان تصنع له صـــندوقا ٠ وتطليه بالقطران ، تم تضع فيه وليدها ، وتلقى به فى اليم ، وهو البحر أو النهر والمراد به النيل كما جاء فى كتب التفسير ٠

وأوحى الله اليها « ألا تخافى ولا تحزنى انا رادوه اليك وجاعلوه من المرسلين » ٠

وفعلت ما ألهمها الله أن تفعل ٠

وألقت التابوت بمن فيه فى النيل ، ثم طلبت الى أخته ــ وكان اسمها مريم ــ أن تراقبه عن بعد ، وأن تتبع أثره ٠ وتتسمع خبره ٠

وظلت اخته ترقبه حتى التقطه آل فرعون ، وأدخلوه بيته ، ثم علمت أنه وقع من قلب امرأة فرعون موقع الحب والحدب والاشفاق ، وأنها وجدت فيه قرة عين لها ولزوجهـــا فقالت « لا تقتلوه عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولدا » ٠

وقنع فرعون بما سمع ٠٠ فاستبقاه ٠

وبرزت مشكلة تغذيته ٠٠ انه لم يقبل على ثدى مرضعة من المراضع اللائى أحضرن لارضاعه ٠٠ وكان ذلك تدبيرا من اللطيف الخبير ٠٠ فقد تقدمت أخته وقالت « هل أدلــكم على أهل بيت يكفلونه لـــكم وهم له ناصحون ؟ » ٠

ثم أرشدتهم الى أمه وأمها دون أن تشعرهم بأن أمه أمها وأنه أخوها ٠
ورده الله الى أمه « كى تقر عينها ولا تحزن » ٠
وأقبل على ثديها ٠ وعاش مدة حضانته فى رعايتها وعنايتها ٠

فى البلاط الفرعونى ٠٠

بعد مدة الرضاعة التى قضاها موسى فى كنف أمه ٠ عاد أو أعيد الى بيت فرعون ، وربى فى ظله كما كان يربى أبناء الملوك ٠

ولما شب عن الطوق ظهرت بوادر ذكائه ٠ وقوته ٠ وشخصيته ، ثم كان له حين أدرك الشباب من العلم والحكمة ومؤهلات الزعامة فى قومه ما يفهم من قوله تعالى « ولما بلغ أشده واستوى آتيناه حكما وعلما وكذلك نجزى المحسنين » ٠

ورأى فيه بنو اسرائيل زعيما حكيما قوى البأس ، فجعلوه معاذهم وملاذهم ٠

ورأى موسى نفسه دخيلا فى بيت فرعون ، أصيلا فى بيت اسرائيل فجعل من نفسه حاميا لهم ٠ ومدافعا عنهم ، واستطاع بنفوذه وقوة شخصيته ومكانته أن يكف أيدى المصريين عن بنى اسرائيل ، وأن يلطف حدة العداء التى كان يعانيها هؤلاء الدخلاء من أبناء البلاد الأصليين ٠

ثم حدث أن أخرج على حين غفلة ، فوجد مصريا يمسك باسرائيلى ورآهما يتشاجران ، فاستغاثه الاسرائيلى على المصرى ، فاغتاظ موسى وضرب المصرى بمجمع يده فقضى عليه ، ثم واراه فى التراب وكتم الأمر ، فلم يعلم بذلك الا الاسرائيلى الذى نصره وأعانه ٠

وأحس موسى الندم على ما فعل ٠ فقال « هذا من عمل الشيطان » ثم تاب وأناب وقال « رب انى ظلمت نفسى فاغفر لى فغفر له » ثم قال : « رب بما أنعمت على فلن أكون ظهيرا للمجرمين » .

ولم يكن المجرمون الذين عزم على ألا يظاهرهم ويناصرهم الا هؤلاء من بنى اسرائيل ٠

من القاتل ٠٠ ؟

ندم موسى على أن ظاهر الاسرائيلى ضد المصرى ، فكان من نتيجة ذلك أن قتل نفسا حرم الله قتلها ٠٠

وعزم بعد أن تاب وأناب ألا يكون ظهيرا للمجرمين ٠

وهذه العبارة يستشف منها أنه ـ كما قدمنا ـ كان يستخدم نفوذه فى مناصرتهم ٠ وكف أيدى المصريين عنهم ٠٠

ويظهر أن شبح القتيل كان يلوح أمام عينيه ٠ ويعترض طريقه أينما ذهب ، وان خوف الثأر او القصاص كان يملأ حياته قلقا وأرقا ، فان ذلك يمكن أن يفهم من قول الله سبحانه « فأصبح فى المدينة خائفا يترقب » ٠

لقد عثر على جثة القتيل ، واتهم بنو اسرائيل بأنهم قاتلوه ، وطلب من فرعون أن يأخذ للمصريين بحقهم من الجناة ، ولكنه أبى حتى يعرف القاتل ويرى من يشهد بأنه قاتل ٠

ومر موسى صباح الغد ٠ فوجد نفس الاسرائيلى الذى طلب نصرته بالأمس يطلب نصرته ويستصرخه على مصرى آخر ٠

وغضب موسى عليه السلام وقال له « انك لغوى مبين » ثم اتجه الى المصرى ليبطش به ففهم الاسرائيلى أنه يريده ٠ وصاح قائلا لموسى « أتريد أن تقتلنى كما قتلت نفسا بالأمس ان تريد الا أن تكون جبارا فى الأرض وما تريد أن تكون من المصلحين » ٠

وسمع المصرى ذلك الذى سمعه ٠ فرجع بالنبأ الى قومه ٠
وعرف من لم يكن يعرف أن موسى هو القاتل ٠
وانعقد مؤتمر من أشراف المصريين للأخذ بالثأر والقصاص ٠٠

ولكن أحد الحاضرين أسرع بالسر الى موسى وقال له : « ان الملأ يأتمرون بك ليقتلوك فاخرج انى لك من الناصحين » ٠

الى مدين ٠٠

ولم يكد موسى يسمع أن الملأ يأتمرون به ليقتلوه حتى عزم على التعجيل بالرحيل ٠٠

ولم يجد مع الخوف فرصة يتزود فيها لهـــذه الرحلة التى لم يكن يعرف مداها ولا منتهاها ..

لقد أوشك القوم أن يحدقوا به ، وأن يطبقوا عليه ، وأن يفتكوا به ، فلا مجال للتفكير فيما وراء ذلك من تعب يضنيه . وجوع يذويه ، ومسالك يقطعها . ومهالك يرجو النجاة منها .

كان كل همه أن يفلت بعنقه من أيدى هـــؤلاء الذين يأتمرون به ليقتلوه ، فان أعوزه الدليل بين متاهات السهول والتلال والجبـــال فلن يعوزه أن يلتمس في رحمة الله دليله وسبيله ، وان كمن له الخطر فى كل مكمن ومسكن فعساه يجد فى رعاية الله ملاذه ومعاذه .

وهكذا كانت حاله كما يقول الله « فخرج منها خائفا يترقب قال رب نجنى من القوم الظالمين ، ولما توجه تلقـــاء مدين قال عسى ربى أن يهدينى سواء السبيل » .

وامضى ثمانى ليال ـ كما يقال ـ خائفا يترقب ..

وقطع الأرض ماشيا حافيا حتى أكلت جلد قدميه ..

والح عليه الجوع حتى أكل من ورق الشجر ، واشتد عليه التعب حتى ذاب شحمه ولحمه .

وظل فى تنقل وتجـــوال حتى وصـــل « مدين » وهى ـ كما يقولون ـ بلاد حول خليج العقبة فى شمالى الحجاز وجنوبى فلسطين .

وهناك وجد جماعة يتزاحمون حـول ماء ليسقوا ماشيتهم ، ووجد امرأتين تمنعان غنمهما بعيداً عنه .

« قال ما خطبكما . قالتا لا نسقى حتى يصدر الرعاء وأبونا شيخ كبير ، فســـقى لهما ثم تولى الى الظل فقال رب انى لما أنزلت الى من خير فقير » .

واستجاب له ربه . فلم يمض غير قليل حتى جاءته احداهما تمشى على استحياء « قالت ان أبى يدعوك ليجزيك أجر ما سقيت لنا »

الى الامن والرخاء

كان موسى جائعا . وحيدا . غريبا فى أرض مدين .

وكان دعاؤه « رب انى لما أنزلت الى من خير فقير » يعنى ذلك وأكثر من ذلك ٠

فان كلمة خير تسع كل ما كان يتطلع اليه من بر ، ولم يكن شيء عنده خيرا من أن يجد الشبع بعد الجوع ، والراحة بعد التعب ، والانس بعد الوحشة ، والسلام بعد هذه الفترة التى ملأت قلبه خوفا ٠ وقلقا ٠ واضطرابا واكتئابا ٠

وهناك الى ذاك شيء آخر حرك نخوته ٠ وهز مروءته ٠ وأثار عاطفته، وملأ قلبه حدبا واشفاقا على الفتـــاتين الضعيفتين ، وعلى أبيهما الشيخ الضعيف ، ولعله حرك فيه رغبة أخرى لم يبح بهـــا ، ولم يفصح عنها ، وانما طواها وعناها فيما كان يعنى حين قال : « رب انى لما أنزلت الى من خير فقير » ٠

ولعل هذه الرغبة أيضـــا كانت مطوية معنية فى قول الفتاتين أو احداهما « لا نسقى حتى يصدر الرعاء وأبونا شيخ كبير » فانه قول يشف عن الاحساس بالضعف ٠ والحاجة الى المعين ٠

عادت الفتاتان مبكرتين بغنمهما على خلاف العادة ، فارتاب والدهما فى الامر ، حتى علم قصتهما مع موسى ، ثم بعث باحداهما اليه ، فجاءته « تمشى على استحياء قالت ان أبى يدعوك ليجزيك أجر ماسقيت لنا » ٠

ويذكر بعض المفسرين انه ــ عليه السلام ــ تبعهـــا ، فرأى الريح تضرب ثوبها من خلفها ، وتكاد تكشف محاسنها ٠ وتصف مفاتنها ، فطلب اليها أن تتأخر عنه ٠ وتمشى خلفه ٠ وتصف له الطريق ٠

وبذلك عرفت أمانته ، كما عرفت فى السقى قوته ، ولهذا ٠ قالت: « يا أبت استأجره ان خير من استأجرت القوى الامين » ٠

ولما قص موسى على الشيخ قصته ٠ طمـــأنه وأمنه ٠ وهنأه بنجاته ثم قال له « انى أريد أن أنكحك احدى ابنتى هاتين على أن تأجرنى ثمانى حجج فان أتممت عشرا فمن عندك » ٠

وتم عقد الزواج ٠ ووجد موسى الانس بعد الوحشة ٠ والشبع بعد الجوع ٠ والامن بعد الخوف ٠

صهر موسى

لم يذكر القرآن اسم الشـــيخ الكبير الذى أصهر اليه موسى عليه السلام ٠

ولكن المشهور عند كثير من علماء التفسير انه شعيب عليه السلام ، وقد ذكر جماعة انه ابن أخى شعيب ، وان اسمه «يثرون» أو «يثرى» ، وقال غيرهم انه رجل مؤمن من قوم شعيب ٠

ويلوح لى أن اسم «شعيب» ظهر واشتهر وغلب استعماله فى غيره ممن قيل انهم أصهار موسى ، لانهم كانوا ينتمون اليه بالقرابة أو التبعية٠

وسواء أكان صهر موسى شعيبا أم غيره ممن يمتون اليه بنسب أو سبب فان القصة لا تتأثر ولا تتغير ٠

لقد وجد موسى ما كان يأمله ويرجوه ، فاعرس باحدى ابنتى الشيخ الكبير على أن يأجره ثمانى سنين أو عشرا ٠

ووجد الشيخ ما كان يأمله ويرجوه من راع أمين قوى ٠ يرعى غنمه بدل ابنتيه ، ومن زوج كريم تسعد به احدى ابنتيه ٠

وكان لموسى الخيار فى أن يخدم صهره ثمانى سنين أو عشرا٠ مهرا لزوجته أو بدلا من مهر ، وقال « ذلك بينى وبينك أيما الأجلين قضيت فلا عدوان على» فاذا أمضيت ثمانى سنين فليس لك أن تطالبنى باتمامها ، واذا أمضيت عشر سنين فليس لك أن تطالبنى بزيادة عنها ٠

وعلى هذا تم العقد ٠ وانعقد الاتفاق ٠

قد تسأل ما اسم الفتاة التى تزوجها موسى ٠٠ ؟ فأجيبك بأن أكثر المفسرين على أن اسمها « صفورة » ٠

وقد أغفل القرآن ذكر اسمها ٠ كما أغفل ذكر اسم أبيها ، وكما أغفل ذكر أسماء النساء الا مريم ابنة عمران ، فانها انفردت بمعنى تذكر به وتشهر ، وتذكر به قدرة الله التى أوجدت عيسى من غير أب كما يشير الى ذلك قوله « وجعلناها وابنها آية للعالمين » ٠

ولعل تكرير اسمهـــا وتطهير سمعتها كان من القرآن قرعا لأسماع بنى اسرائيل ٠ وقطعا لما أذاعوه من تهم آثمة ظالمة حول ولادة المسيح ٠

فى ظلام ليلة

قضى موسى فى خدمة حميه عشر سنين أو ثمانيا ، فقد كان له الخيار كما قدمنا فى قضاء أى الأجلين ٠

ولم يعين القرآن الكريم المدة التى قضاها ، ولكن المفسرين ذكروا أنهـــا كانت عشر سنين ، واعتمدوا فى ذلك على حديث روى عن النبى صلى الله عليه وسلم ، ولو لم يذكر هذا الحديث لكان لنا أن نرجع ماهو أليق بكمال الوفاء ٠٠ وأخلق بمقام الانبياء ٠

يضاف الى ما يرجع ذلك أو يؤكده ٠ وهو ان حمـــاه جعل له فى السنة الاخيرة من مدة خدمته نتاج غنمه فيها ، فحملت كلها ، وأكرمه الله فلم يخرج خالى الوفاض صفر اليدين ، بل خرج بقطيع يملأ عينيه سرورا وقلبه اطمئنانا ٠

وسار به موسى مع زوجه يقطعان السهول، ويرتادان مواطن العشب والكلأ ، وينشدان المراعى الخضر ، ويجدان فى حياتهما الجديدة المستقلة مايملأ قلبيهما غبطة وسكينة ٠ أو شعورا بالغربة ٠ وحنينا الى الاستقرار، فقد ذكرت التوراة أنهما رزقا ولدا ، وسمياه « جرشوم » وقيل ان هذا الاسم يدل على معنى الغربة ، ويشعر بأن صاحبه غريب المولد ، وعلى ذلك يكون مشعرا بما كان يسود حياتهما من احساس بالوحشة والبعد عن الناس ، ونزوع الى حياة الاطمئنان ٠ والاستقرار والامان ٠

وذات ليلة لفهما الظلام ، وضلا الطريق ٠

كان البرد قارسا ٠ والظلام دامسا ، والسكون رهيبا، فاذا اضطرب الجو بحركة أو صوت فماذا يكون فى هذا الفضـــــاء الواسع ٠ والتلال الراقدة ٠٠ والجبال القائمة ٠ والصخور الجاثمة ٠ غير عويل الرياح أو صياح الوحوش ٠٠ ؟

وشعر موسى بالحاجة الى الضوء والدفء فأخرج زنده ٠ وأخذ يقدحه دون جدوى ٠

لم تنطلق شرارة واحدة ليشعل بها نارا كان يرجو أن يجـد فيها الدفء المريح ٠ والضوء الهادى ٠

امل على البعد

لا يعلم الا الله ما كان يعتمل فى صدر موسى عليه السلام وهو مكب على زنده يقدحه . عساه يجود بشرارة صغيرة يضرم بها نارا كبيرة تشيع الضوء . وتجود بالدفء فى هذا المكان المظلم البارد .

ولا يعلم الا الله ما كان يمتلىء به قلبه من وساوس وهواجس بعد أن ذهبت محاولته عبثا . وأصبح صدره كليله يغمره ظلام اليأس ، وتخطر فيه أشباح المخاوف ، وتطوف به صور الاوهام .

ولكنه بعد فترة ــ مهمــا تكن قصيرة فقد كانت طويلة ــ رأى على البعد ما بدد مخاوفه ، وحرك نشاطه ، وشرح صدره ، وأضاء نفسه بأمل جديد .

لقد رأى نارا تضىء فى مكان بعيد . وتلوح له بما كان يرجوه من نور ودفء « فقال لأهله امكثوا انى آنست نارا لعلى آتيكم منها بقبس أو أجد على النار هدى » .

وترك أهله وغنمه ، وسار شاخصا الى النار . متجها اليها . عساه يرجع منها بقبس ، أو يجد عندها هدى أى هدى .. هدى الى الطريق بعد أن ضل الطريق. أو هدى من الله يبصره برسالته فى الحياة .. أو هدى يكشف له ما كان خافيا عنه مما لا نعلمه ولا يعلمه الا الله .

ولم يكد يقترب من النار حتى راعه منها ما رابه فيها ..!

انها تتالق فى عريش أخضر يكسو شجرة خضراء ، ثم لا تأكل النار من ورقها شيئا ..!

وما هذا الذى يراه منها .. ؟ انه كلما دنا منها بعدت منه . وكلما تقدم نحوها تأخرت عنه ..!

وساوره الخوف . وملأ قلبه ارتيابا واضطرابا ..

وهم أن يرجع ويقنع من الغنيمة بالاياب دون ضوء أو دفء .

ولكنه ما كاد يفعل حتى اقتربت الشجرة منه ، وســمع من جوفها صوتا يشيع فى نفسه الأنس به . والارتياح اليه « ياموسى انى أنا ربك فاخلع نعليك انك بالوادى المقدس طوى ، وأنا اخترتك فاستمع لما يوحى، انني أنا الله لا اله الا أنا فاعبدنى وأقم الصلاة لذكرى » .

في الوادى المقدس

لم تكن النـــار التى رآها موسى هى النـــــار التى كان يتطلع اليها ويلتمس عندها الدفء والضوء ، وانمـــــا كانت راية من نور تلوح له • وتغريه بالاقدام عليها من خلال الشجرة الخضراء •

وسبحان الله أن يكون له مكان ، فانه منزه عن المكان والحاجة الى المكان •

وسبحانه أن يكون جسما كالنار أو النور أو أى جسم أو جرم من الاجسام والأجرام ، فانه جل شأنه « ليس كمثله شيء » •

وسبحانه أن يكون له صـــــوت كأصواتنا فى مظهره أو مصدره أو نبراته أو لهجاته ، فانه كما يقول سبحانه : « ولم يكن له كفوا أحد » .

وقف موسى متفتح الروح • منشرح الصدر • قرير العين بما يسمع ويرى ، وعرف انه فى الوادى المقدس طوى . فأسرع وخلع نعليه امتثالا لأمر ربه • واحتفالا لاستقبال وحيه •

ثم أراه الله بعض آياته ومعجزاته ليطمئن قلبه فقـــال « وما تلك بيمينك ياموسى • قال : هى عصاى • أتوكأ عليها وأهش بها على غنمى ولى فيها مآرب أخرى» قال ألقها ياموسى • فالقاها فاذا هى حية تسعى • فلما رآها كذلك فزع منها ، وولى مدبرا يحاول الهرب ، فناداه ربه «قال خذها ولا تخف سنعيدها سيرتها الاولى » فأخذها فاذا هى كما كانت : عصاه التى عرفها وألفها •

ثم أراه آية أخرى فقال « وأدخل يدك فى جيبك تخرج بيضاء من غير سوء آية أخرى » ، فادخل يده فى جيبه وأخرجها فاذا هى فى بياض الثلج دون مرض أو برص ، ثم أدخلها مرة أخرى وأخرجها فاذا هى كما كانت : يده التى عرفها وألفها •

وبذلك زاد اطمئنانه وايمانه ، وعرف انه رسول من عند الله مؤيد بخوارق المعجزات والآيات •

الى فرعون

بعد أن زود الله موسى عليه السلام بهـــاتين الآيتين : وهما تحول العصـــا الى حية تسعى ، وبياض اليد من غير سوء بادخالها فى الجيب واخراجها منه، أمره سبحانه أن يذهب الى فرعون لينقذ قومه بنى اسرائيل من عدوانه وطغيانه ٠ ولكن موسى ما كاد يسمع هــذا الامر حتى ساوره الخوف من جديد ، وبرزت أمامه مشكلة أخرى ٠

انه قاتل ٠ خرج من مصر هاربا من الذين ائتمروا به ليقتلوه فكيف يعود اليهـــا ٠ ويضع عنقه فى قبضة الحانقين عليه ٠ المتربصين به ٠ المطالبين بالثأر منه «قال رب انى قتلت منهم نفسا فأخاف أن يقتلون» ٠

انه عيى لا يكاد يبين حين يتـــكلم ، فقد أصيب بحبسة فى لسانه نتيجة لتأخر ارضاعه ٠ أو لجمرة وضعها فى فمه على انها ثمرة كما يذكر بعض المفسرين ليظهر أمام فرعون انه طفل غر لا يفرق بينهما فيصفح عنه ويعفيه من القتل «قال رب انى أخاف أن يكذبون ويضيق صدرى ولاينطلق لسانى فأرسل الى هارون» « وأخى هارون هو أفصح منى لسانا فأرسله معى ردءا » ٠

وأجابه الله الى ما طلب ، وبدل خوفه من فرعــون وآله أمنا فقال « سنشد عضدك بأخيك ونجعل لكما سلطانا فــلا يصلون اليكما بآياتنا أنتما ومن اتبعكما الغالبون » ٠

وعاد موسى يملؤه الايمان بأنه سينجح فى مهمته ورسالته ، وأخذ أهله معه فسار بهم نحو مصر ٠

وشاءت عناية الله أن ينزل أول ما ينزل فى بيت أمه ، وأن يكون ذلك بليل ، وأن يلقاه أخوه هارون ويسأله عن اسمه ٠٠ ثم يعرف وتعرف أمه أنه موسى ٠

وتكون المفاجأة السارة ٠

فرحة اللقاء

كانت مفاجأة لا تخطر ببال ولا يتصورها خيال ٠ أن يعود موسى الى أمه وأخيه بعد أن علمـــا من أمره ما كان منه وما كان من المصريين معه ، وبعد أن غاب عنهما هذه الغيبة الطويلة وانقطعت آثاره ٠

لقد نسيت أمه وأخوه أو تناسيا أمره وخبره ٠

ولعلهما لم ينسياه ٠ أو لعل أمه لم تنس البشارة السارة حين خافت عليه فاوحى الله اليهـا « أن أرضعيه فاذا خفت عليه فألقيه فى اليم ولا تخافى ولا تحزنى انا رادوه اليك وجاعلوه من المرسلين » ٠

ولكن القرآن لم يذكر أنهـا نسيت أو تناست ، والتوراة لم تذكر أنها نسيت أو تناست ٠ وانمـا نقل فضيلة المرحوم الشيخ عبد الوهاب النجار ٠ أنه نزل فى جانب من الدار ، فلما جاءها هارون وأبصره سأل عنه أمه ، فأخبرته أنه ضيف ، فدعاه وجلس يتـحدث اليه ، ولمـا عرف اسمه قام كل منهما الى صاحبه فاعتنقه ٠

على أية حال كان هذا اللقاء مفاجأة سارة لهارون وأم موسى اذا كان صحيحا ما ذكره الرواة ٠ وسكت عنه القرآن والتوراة ٠ من أن أم موسى كانت لا تزال موجودة ٠ وانها فرحت بعودة ابنها الغائب الحبيب بعد أن يئست من أن يعود ٠

ولكن أية فرحة هـذه وأى سرور ذلك الذى لا يكاد يضىء فى قلب صاحبه ووجهه حتى تغشاه سحابة حزينة وظل كئيب ٠

ان بنى اسرائيل لا يزالون يعذبون ويسـتعبدون ، ويسخرون فى تعبيد الطرق ٠ وبناء المدن ٠ وصنع اللبن «الطوب» ٠ فماذا يشرح صدر أم موسى وصدر هارون فى عودة موسى ، وهو ان نجا من الموت فلن ينجو من العذاب الذى يعانيه ويقاسيه بنو اسرائيل ٠

ولنتابع الرواة فيما سكت عنه القرآن والتوراة ٠ وتذكر أن موسى أخبرهما بأن الله أرسله وأيده بمعجزاته وآياته ، ووعده بنصره ، وانه أشرك معه أخاه هارون وجعله معه رسولا الى فرعون ، ولـكن أمهما مع ذلك خافت عليهما وحاولت أن تثنيهما عن عزمهما دون جدوى ٠

لقد كان لا بد من تنفيذ أمر الله وتبليغ رسالته ٠

مع فرعون

كيف تمكن موسى وأخوه هارون من لقاء فرعون ٠٠؟

وهل كان فرعون وقت ذاك هو فرعون الذى هم بقتل موسى صغيرا ثم عدل عن قتله ورباه ٠٠ ؟

اختلفت روايات المفسرين في الاجابة على السؤال الاول ، فبعضهم يذكر أن موسى وهارون تمـكنا من لقاء فرعون بمجرد الاسـتئذان ، وبعضهم يقـول : انهما ظلا يترددان على بابه مدة عامين دون أن يجدا سبيلا الى لقائه ، حتى دخل عليه مضحكه وأخبره أن رجلا مجنونا يقف على بابه ويزعم أن له الها غير فرعون ، فاهتم لهذا الامر ، وطلب استدعاءه فدخل عليه موسى وهارون ٠

ولكن الذوق ، وجلال مقـام الانبياء يحـولان دون تصديق هذا الادعاء ٠

أما اسم فرعون الذى أرسل اليه موسى فهو منفتـاح بن رعمسيس كما كتب الى بذلك سيد فاضل لا يحضرنى ذكر اسمه ٠

وقد بدأ اضـطهاد بنى اسرائيل فى عهـد رعمسيس الثانى ـ كما قد منا ـ وللأسـباب التى ذكرناها ، وكان لرعمسيس أولاد كثيرون منهم منفتاح ، ولعله كان وليا للعهد حين كان موسى فى بيت فرعون ٠ فلما عاد موسى الى مصر كان زمام أمرها قد آل اليه ، ولعل مما يؤيد ذلك قوله لموسى فيما حكاه القرآن عنه « ألم نربك فينا وليدا ولبثت فينا من عمرك سنين وفعلت فعلتك التى فعلت وأنت من الـكافرين » وقول موسى يرد عليه « فعلتها اذا وأنا من الضالين ٠ ففررت منكم لما خفتم فوهب لى ربى حكما وجعلنى من المرسلين » ٠

هذا ما ظهر واشتهر من الآثار التى عثر عليهـا المنقبون فى تاريخ مصر القديم ، والقرآن لم يذكر ذلك لأنه لا أهمية له فى موضوعه أو فى صميم رسـالته ، فانه كتـاب هداية وتذكير وتبصير ، ومن ثم يكتفى من القصة والوقائع التاريخية بالقدر الذى يستخلص منـه العبرة ويقتضيه المقام ، ومع ذلك يمكن استخلاص قصصه كاملة محبوكة بجميع أجزائها من مواطنها المختلفة ، ورد كل جزء منها الى موضعه المناسب له ٠

وأغلب الظن أن فرعـون الذى ربى فى بيتـه موسى لم يكن وقت التقاطه قد ولد له أو لزوجه ولد ، بدليل قول امرأته « لا تقتلوه عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولدا » ٠

تأله الملوك

لم يكن فرعون هو الملك الوحيد فى التاريخ الذى طغى وبغى · وقال لقومه « ما علمت لكم من اله غيرى » ·

بل ان ذلك كان عادة كثير من الملوك فى قديم الزمان · والى عهد قريب قبل الآن ·

كان ملوك الرومان واليونان كذلك ·

وكان ملوك انجلترا منذ عدة مئات من السنين كذلك أو قريبا من ذلك ·

وكان امبراطور اليابان الى عهد قريب أو هو لا يزال حتى الآن كذلك أو قريبا من ذلك ·

بل سأذهب الى أبعد من هذا · فأقول ان بعض خلفاء المسلمين فى العصر العباسى انحرفت طباعهم وأوضاعهم فكانوا يشهدون أن لا اله الا الله ويزعمون أنهم على الأرض ظل الله ·

بل ان هذه الفكرة أخذت طابعا فلسفيا أملاه دون شك النفاق وضعف الأخلاق، فرأينا فى النصف الثانى منالقرن السادس عشر مذهب « تومس هبز » الذى ينادى بأن سلطان الملوك سماوى · وحقهم مقدس ·

فهل نعجب بعد ذلك اذا قرأنا أن فرعون تأله ، وأخذته العزة بالاثم، وقال « أنا ربكم الأعلى » ؟·

لا عجب فى ذلك ولا استغراب ، فقد كان الملوك أو أكثرهم يضعون أنفسهم فى اطار من التقديس والاكبار ، ويوحون الى العلماء والرؤساء بأن يموهوا بذلك على العامة والدهماء ، حتى يقع فى روعهم الشعور بالعجز والقصور ، فلا يفكرون فى معارضتهم ومناهضتهم ، وبذلك يظل الشعب خادما مسودا ، ويظل الملك حاكما معبودا ، وقد لمح بذلك رسول الحرية ونبى البشرية حين قال لرجل هم أن يقع على قدميه « هون عليك ، أنا لست بملك ، أنا ابن امرأة من قريش كانت تأكل القديد » ·

وقد كان أول ما قاله موسى لفرعون « انى رسول رب العالمين » وبذلك طعنه فيما كان يدعيه ويحرص عليه ، وأشعره بأنه مثله مربوب لاله واحد يخضع له كل ما سواه ·

عموم الرسالات

قد يقول قائل : ان موسى عليه السلام أرسل لبنى اسرائيل ، كما أرسل شعيب الى مدين ، وهود الى عاد ، وصالح الى ثمود ، وكما أرسل كل نبى قبل خاتم الأنبياء والمرسلين الى قومه دون غيرهم. فما شأن موسى وشأن ديانة مصر وفرعون مصر ؟.

والجواب كما يستخلص من القرآن هو ما قدمنا من أن الدعوة الى الله كانت ولا تزال طريق التحرر من ربقة الوثنية وذل العبودية ، وأن كلمة « رب العالمين » التى ألقاها موسى فى اذن فرعون كانت شعاره الجامع لكل ما تطمح اليه نفسه ونفوس المضطهدين المستبعدين . من التحرر والخلاص، والشعور بالأمن والكرامة ، فانها مثل كلمة « لا اله الا الله » تفيد أن كل ما سوى الله وما عداه مربوب له . محتاج اليه . مدين لرحمته بكل ذرات جسمه . وقطرات دمه . وخطرات فكره. وخفقات قلبه ، فلا يحق لانسان أن يلتمس لنفسه قدرا فوق قدره، ولايجوز لغيره أن يضعه فى غير مايجب أن يكون موقعه وموضعه بين الناس ، والا وقع فى شرك الشرك . وهوان الوثنية .

لقد أرسل كل نبى قبل محمد عليه السلام الى قومه دون غيرهم ، ولكن جميع الرسالات السماوية لا تختلف فى موضوعها ، ولا فى الأصول العامة التى قامت عليها ، بل لا يتصور أن يكون مصدرها واحدا وهو الله جل شأنه . ثم تختلف فى أسسها ومقاييسها العامة ، فيكون المعبود عدة آلهة فى بعضها. والها واحدا فى بعضها الآخر ، ويكون الغدر مثلا فضيلة فى بعضها رذيلة فى بعضها الآخر .

انما تختلف الديانات فى بعض الفروع ، ويكون مرد اختلافها الى الظروف العارضة والأحوال المتغيرة . والطبائع المختلفة ، أما اذا وجد اختلاف فى الأصول والقواعد فلا يكون الا نتيجة تحريف أو تزييف كما وقع من أحبار بنى اسرائيل وغيرهم .

على ضوء هذا يمكن أن نفهم ما عناه موسى بقوله لفرعون « انى رسول رب العالمين ، حقيق على ألا أقول على الله الا الحق . قد جئتكم ببينة من ربكم فأرسل معى بنى اسرائيل » .

في الصميم ..

شعر فرعون بأنه طعن في صميم كبريائه حين سمع موسى يقول له: « اني رسول رب العالمين » فان كلمة « رب العالمين » تعني أنه مثل غيره ممن يحكمهم ويظلمهم ، وأنه يخضع كما يخضعون لقوة أعلى من قوته وقوتهم ، وارادة أمضى من ارادته وارادتهم ، وأنه لذلك يجب أن يشعر بأنه مسود لا معبود .

انها تعني أن الناس جميعا سواسية أمام خالقهم ورازقهم ، فلا يحق لواحد أن يستعبد أخاه ويتأله عليه ، ولا ينبغي لانسان أن يمتهن كرامة انسان ، ولا يجوز لشعب أن يبغي على شعب ، ولا لأمة أن تطغى على أمة .

ومعنى هذا أيضا أن يتاح لكل فرد الحرية التي لا يجور بها على حرية غيره ، وأن يتاح لكل شعب الحرية التي لا ينتقص بها من حرية غيره ، وأن تنهار الوثنية بكل صورها وألوانها لأنها تهدم الحرية ، وتهدر الكرامة الآدمية .

ومن ثم أحس فرعون أن صرح كبريائه يوشك أن ينقض ، وأن زيف غروره يوشك أن يتلاشى ، وأن الهالة التي كانت تحيط به في ظلام الجهل ستذوب ويذوب معها اغتراره واستهتاره اذا سطعت شمس هذه الحقيقة . وعرف الناس أمره وقدره على حقيقتهما .

كل هذه المعاني أو جلها خطرت في نفس فرعون ، وكادت تفزعه وتروعه ، ولكنه تمالك وتماسك ، ثم تجاهل وتساءل : « ومارب العالمين » .. ؟

وقد أجاب موسى بقوله : « رب السموات والأرض وما بينهما ان كنتم موقنين » وهنا التفت فرعون الى من حوله وقال : « ألا تسمعون .. ؟ »

فاتجه موسى اليهم وقال « ربكم ورب آبائكم الأولين »

المخاشنة بعد الملاينة ..

كان أسلوب موسى في خطابه مع فرعون لينا كما أمره الله وأمر أخاه . اذ قال لهما « فقولا له قولا لينا لعله يتذكر أو يخشى » .

ولكن هذا اللين لم يحجب عن فرعون المعانى الكبرى التى كشفت عنها هذه الكلمات « انى رسول رب العالمين . حقيق على ألا أقول على الله الا الحق . قد جئتكم ببينة من ربكم فأرسل معي بنى اسرائيل » .

فكان منه ما كان من التجاهل والتساؤل عن « رب العالمين » .

وكان من موسى ما كان رده عليه بقوله « رب السموات والأرض وما بينهما ان كنتم موقنين » .

ثم اتسعت دائرة الحوار حين اتجه فرعون الى من حوله وقال فى استنكار واستهتار « ألا تسمعون .. ؟ » فقـــد اتجه اليهم كذلك موسى وقال : « ربكم ورب آبائكم الأولين » . ومعنى ذلك أن الله كان قبل أن تكونوا ويكون فرعون ، وأنه كان قبل أن يكون آباؤكم وآباء فرعون ، وأن وجودكم بعد العدم لا يكون الا بقدرة قادر لا يسبق وجوده بعدم ، ولا ينتهى وجوده بعدم ، فهو الذى أحياكم ورباكم ورعاكم ، وأحيا وربى ورعى آباءكم وأجدادكم ، فمن حقه دون غيره أن يحمد ويعبد ..

وضاق فرعون بهذه الجرأة عليه وعلى الملأ من حوله ، فقـال : « ان رسولكم الذى أرسل اليكم لمجنون » .

وصـــار موسى الى المخاشنة بعد الملاينة ، فرد له الصاع صـاعين وقال « رب المشرق والمغرب وما بينهما ان كنتم تعقلون » فان تعبيره بجملة « ان كنتم تعقلون » يعنى أنهم لا عقل لهم ، ولو كانوا يعقلون لعرفوا من شواهد الآيات التى تحيط بهم فى الأرض والسموات أن الله هو وحده رب العالمين ، وأن فرعون كغيره من الناس مخلوق له محتاج اليه لا يستحق العبادة منهم أو السيادة عليهم ..

وعيد وتهديد

أوغر موسى صدر فرعون بهذه المخاشنة التى انتهى اليها فى حديثه معه ، ولكن فرعون عاد فذكر نشـأة موسى فى بيته . وتربيته فيه . وتقلبه فى ظلال نعيمه . فقال له « ألم نربك فينا وليدا ولبثت فينا من عمرك سنين ، وفعلت فعلتك التى فعلت وأنت من الكافرين » .

ويظهر أن موسى قد تأثر بهذا العتاب الذى فهمه من الخطاب ، فقد

اعترف بأنه كان آثما ظالما حين قتل المصرى ، وذكر أن ذلك كان منه قبل النبوة لا بعدها « قال فعلتها اذا وأنا من الضالين ، ففررت منكم لما خفتكم فوهب لى ربى حكما وجعلنى من المرسلين » .

ثم عاد فطلب من فرعون أن يمن عليه وعلى بنى اسرائيل باطلاق سراحهم ، وفك اســـارهم فقال « وتلك نعمة تمنها على أن عبدت بنى اسرائيل » .

ولكن فرعون لم يستجب له ، ولم يحقق رجاءه ، بل زاد فى عتوه وغلوه . وقال : « لئن اتخذت الها غيرى لأجعلنك من المسجونين » .

قال موسى : « أو لو جئتك بشىء مبين » .

فأجاب فرعون « ان كنت جئت بآية فأت بها ان كنت من الصادقين»

وقدم له موسى آيتين .. ألقى عصاه أمامه « فاذا هى ثعبان مبين » ثم نزع يده من جيبه بعد أن أدخلها فيه « فاذا هى بيضاء للناظرين » .

ورأى الجميع ما راعهم وروعهم ، ولكن خوفهم من فرعون أو نفاقهم منعهم أن يقولوا كلمة الحق ، فقالوا « ان هذا لساحر عليم » .

الساحر العليم ..

رأى فرعون والملأ من قومه عصا موسى وقد صارت حية تسعى ورأوا يده بعد أن أخرجها من جيبه وقد صارت بيضاء من غير سوء ، فلم يصدقوه مع ذلك فى أنه مرسل من قبل الله رب العالمين ..

واتهموه بأنه ساحر يريد أن يستعلى هو وأخوه فى أرض مصر . ليخرجا منها أهلها . ويمكنا لبنى اسرائيل فيها ..

وانتهوا بعد التشاور . والتآمر الى رأى اتفقوا عليه ، وهو أن يرجىء فرعون موسى وأخاه دون عقاب أو عذاب حتى تبطل حجتهما وتثبت ادانتهما ..

وذلك بأن يحضر المهرة من السحرة ويجمعهم من المدائن .. ليواجه بهم هذا الساحر الماهر . كى يظهر عجزه أمامهم وأمام ما يظهر من عجائبهم وغرائبهم .

وكان للسحر منزلة عظيمة بمصر فى ذلك العصر ، فارسل فرعون فى المدائن أعوانه وعماله . يجمعون السحرة ويحشرونهم جميعا لمواجهة هذا الخطر الجديد ٠

واجتمع السحرة فى ميقات يوم معلوم ٠٠ يوم الزينة ٠ أو يوم عيد وفاء النيل ٠٠ وقالوا لفرعون : « أئن لنا لأجرا ان كنا نحن الغالبين ، قال نعم وانكم اذا لمن المقربين » ٠

ثم تقدموا ممتلئين ثقة بأن لهم النصر والأجر ، وما وعدهم به فرعون من الزلفى لديه ٠ والقرب منه ، وقالوا : « يا موسى اما أن تلقى واما أن نكون أول من ألقى » قال « بل ألقوا فاذا حبالهم وعصيهم يخيل اليه من سحرهم أنها تسعى ، فأوجس فى نفسه خيفة موسى » ولكن الله طمأنه وآمنه ٠ وقال له : لا تخف انك أنت الأعلى ٠ وألق ما فى يمينك تلقف ما صنعوا انما صنعوا كيد ساحر ولا يفلح الساحر حيث أتى » ٠

وألقى موسى عصاه فاذا هى حية كبيرة ٠ تلتهم حبالهم وعصيهم التى سحروا بها أعين الناس واسترهبوهم ٠

وخر السحرة ساجدين ، وقالوا « آمنا برب العالمين ٠ رب موسى وهارون » ٠

ظاهرتان ٠٠

كان ذلك فى يوم مجموع له الناس ٠٠

كأنما كان فرعون يريد أن يجعل من موسى وهارون أضحوكة عامة تشيع فى أرجاء مصر كلها ٠

ولكنه فوجىء وفوجىء المجتمعون بما لم يكونوا يتوقعون ٠

ولوحظ أن السحرة كانوا أول المؤمنين برب موسى وهارون ٠

ورأى فرعون ذلك فكاد يتميز من الغيظ وقال « انه لكبيركم الذى علمكم السحر ٠ فلأقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف ٠ ولأصلبنكم فى جذوع النخل » ٠

وسمع السحرة منه ذلك فلم يضعفوا أمام وعيده وتهديده ، وقالوا « لن نؤثرك على ما جاءنا من البينات والذى فطرنا فاقض ما أنت قاض انما تقضي هذه الحياة الدنيا ، اذا آمنا بربنا ليغفر لنا خطايانا وما أكرهتنا عليه من السحر والله خير وأبقى ، انه من يأت ربه مجرما فان له جهنم لا يموت فيها ولا يحيا » .

هذا هو موقف الذين آمنوا من المصريين برب موسى وهارون ـ فماذا كان موقف المؤمنين من بنى اسرائيل .. ؟

لقد كان موقفهم يتسم بما عرف عنهم من ضعف وخوف . كما يفهم من قول الله فيهم « فما آمن لموسى الا ذرية من قومه على خوف من فرعون وتلائهم أن يفتنهم » بل انهم برموا به . وضجروا منه . وقالوا ما حكاه القرآن عنهم « أوذينا من قبل أن تأتينا ومن بعد ما جئتنا » .

بل انهم حتى بعد نجاتهم لم يكن منهم الا ما عرف عنهم من الجبن والكفر . والتواء الطبع . و . و . الى آخر ما سنرى .

وقد عانى منهم موسى وهارون مالا يقاس به عمل فرعون وقومه .. وسنرى .

لم يكونوا هناك ..

كان عدد بنى اسرائيل كبيرا حين صار موسى امامهم وزعيمهم ، ولكنهم مع هذا لم يكن لهم موقف مشرف فى الصراع الذى نشب من أجلهم بين فرعون وموسى .

وليس أدل على ذلك من أنهم بعد ذبح أبنائهم بلغ عددهم ستين ألفا حين فروا مع موسى ـ كما يقال ـ ، فانهم ـ مع ما وقع عليهم من سوء العذاب ، ومع أن موسى كان على الحق حين أعلن فرعون أنه رسول من رب العالمين ، ومع أن دعوته كانت وسيلة لانقاذهم من الذل الذى كانوا يقاسونه ويعانونه ـ مع ذلك لا نجد لهم موقفا جهروا فيه بتاييد موسى . أو معارضة فرعون ، كأنهم لم يكونوا هناك ، أو كأنهم ممن يصدق عليهم قول الشاعر :

انى لأفتح عينى حين أفتحها على كثير ولكن لا أرى أحدا

بل لقد كان لهم موقف يؤسف · ولا يشرف ، وهو ضيقهم بموسى· وتبرمهم منه · وتخليهم عنه · وقولهم له « أوذينا من قبل أن تأتينـا ومن بعد ما جئتنا » ·

أما الذين آمنوا من أبناء شعب مصر · فقد كان ايمانهم أرسخ من الهرم ، وكان استخفافهم بوعيد فرعون وتهديده بقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف وتصليبهم فى جذوع النخل · مثل استخفاف شعب مصر بكل ما تعرض له من فتن وأحداث ·

فقد جاهروا بموقفهم · وأعلنوا تحديهم لفرعون ، وقالوا « لن نؤثرك على ما جاءنا من البينات والذى فطرنا » ، ولم يجر على ألسنتهم مع ذلك اسم هؤلاء الأذلاء الجبناء بل قالوا « آمنا برب موسى وهارون » ، ولم يكن فى ذلك ما يغض من كرامتهم أو يضعهم من النبى الجديد موضع العبيد ، لأن ايمانهم كان برب موسى وهارون لا بسيادة موسى وهارون ·

كان هناك ··

قد يتساءل البعض : وهل كان الشعب المصرى هناك ·· ؟

واذا كان هناك ، وكان له شأن ووزن فيما كان يحدث اذ ذاك ، فلم لم يسرع بالوقوف مع موسى أمام فرعون ، بعد أن رأى السحرة يعجزون أمام موسى ، ويؤمنون برب هارون وموسى ·· ؟

والجواب أنه كان هناك ، وكان له شأن ووزن فيما كان يحدث اذ ذاك ، ولعل هذا الشأن هو الذى حال دون اسراع فرعون بقتل موسى وأخيه ، فما كان لهما من قوة تحميهما فى نظر فرعون الا الخوف من صياح الرأى العام بعد أن سمع ما سمع · ورأى ما رأى ·

هذا الى أن الشعب المصرى كان يكره بنى اسرائيل من أول يوم عرفهم فيه ، ثم ازدادت به الكراهيـة والمقت حين رآهم أجـراء أذلاء يستخدمهم الهكسوس الغزاة فى أعمالهم وجباية الاموال منه لهم ، ثم تحولت به الكراهية الى احتقار وازدراء حين رأى فيهم مجموعة من الفصائل تجمع كل أنواع الرذائل ، فاعتزلهم المصريون · واعتبروا الأكل معهم

نجاسة ، ثم رحل الغزاة من أرض مصر . فبقى هؤلاء الأذناب ليؤدوا دور الذئاب ، وكان من رعمسيس ما كان مع هؤلاء الجواسيس .

فلم يكن طبيعيا من الشعب أن ينقلب بين عشية وضحاها من معاداتهم الى موالاتهم والعطف عليهم ، بل ان الذين آمنوا منه بدعوة موسى ورسالته لم تجر على ألسنتهم كلمة خير عن بنى اسرائيل ، وانما كان منهم المعارضة لفرعون فى قتل موسى أولا حين جاء رجل من أقصى المدينة وقال لموسى « ان الملأ يأتمرون بك ليقتلوك » وآخر حين قال رجل مؤمن من آل فرعون « أتقتلون رجلا أن يقول ربى الله وقد جاءكم بالبينات من ربكم ، وان يك كاذبا فعليه كذبه وان يك صادقا يصبكم بعض الذى يعدكم ان الله لا يهدى من هو مسرف كذاب » .

عرب أصلا وفرعا ..

ولا يظن أحد أننى أقصد بهذا البيان لموقف شعب مصر من موسى اثارة النعرة القومية المحلية بالمعنى الذى يحاول بعض المغرضين اثارته واستغلاله ، لاشاعة الفرقة . وتمزيق شمل الوحدة بعد أن أوشكت أن تطبق على عدوها الأصيل « اسرائيل » .

فمصر عربية أصلا وفرعا . كما يشهد بذلك العلم عند أهل العلم، والمسلمون أمة واحدة « لا فضل لعربى على عجمى الا بالتقوى » كما يقول الله « وان هذه أمتكم أمة واحدة » .

فهذا البحر الذى قام بين مصر وبين جزيرة العرب ليس الا شقا أحدثه زلزال ، بل انه الى عهد قريب لم يكن بفاصل طبيعى قبل أن نصله بالبحر الأبيض المتوسط عن طريق القناة .

بل ان اللغة المصرية القديمة وجد ثلثها ألفاظا يمنية .

بل ان أم العرب من اسماعيل عليه السلام كانت مصرية لحما ودما كما يعرف ويعترف بذلك الأصدقاء والأعداء على السواء .

على أن مصر الآن بسلالتها ولغتها ودينها وتاريخها ومآثرها ومفاخرها . وحركة التحرير فيها وفيما يقرب منها ويبعد عنها من

الشعوب العربية الشقيقة ٠ انما تمثل دور القلب من جسم الأمة العربية، وأى جرح يمس طرفا من هذا الجسم يأخذ من دماء هذا القلب ويستمد برأه وشفاءه من غذاء هذا القلب ٠

هذه حقيقة يعرفها الاستعمار ، ويعد خططه وبرامجه على هداها ـ ليحقق أهدافه القريبة والبعيدة من الأمة العربية ٠ والعالم الاسلامى ٠

وبقى أن يعرفها بعض الأغرار ممن ينخدعون بزائف القول وبهرج الكلام ، وأن يذكرها الاشرار ممن يحملون الأبواق ، ويمشـــون فى الأسواق ٠

(الى المذبحة مرة أخرى)

بعد أن فوجىء فرعون بما لم يكن يتوقع من عجز السحرة وفضيحة الهزيمة أمام موسى بين الناس ، أحس أن صرح كبريائه بدأ ينهار ، وأحس الملأ من حوله أن مقامهم كذلك صائر الى دمار ٠٠ ونقول الملأ كما يقول القرآن الكريم ، لأن معنى الملأ الجماعة المتضامنون فى حمل الأعباء ٠ أو الذين يملئون الأعين مهابة واحترامـــا ، ومن ثم ندرك أن النزاع كان بين هؤلاء من ذوى المراتب والمناصب والجاه ، وبين موسى وهارون ، ولم يكن بنو اسرائيل ولا عامة الشعب طرفا فى هذا النزاع ـ كما قدمنا ، ولعل التعبير عن هؤلاء بكلمة « آل فرعون » مما يؤيد ذلك فقد قال تعالى : « واذ أنجيناكم من آل فرعون » وكلمة « آل » أصلها « أهل » ولا تستعمل الا مع ذوى النفوذ والخطر والشـــأن العظيم ، فلا يقال آل الاسكاف أو الحداد ٠

وكان فزع هؤلاء وعنادهم واستكبارهم ـ كما هو شأن أمثالهم فى كل زمان ومكان ـ لأن الدعوة الجديدة تعصف بمقامهم ومقام زعيمهم فى البلاد ، ولعل ذلك يمكن أن يفهم من قولهم لموسى وهارون عند أول لقاء « أجئتنا لتلفتنا عما وجدنا عليه آباءنا وتكون لكما الكبرياء فى الأرض » ٠

انهم ـ على أنهم عبيد لفرعون ـ يتمتعون بجاه المناصب ، ونفوذ

السلطان بين عامة الشعب ، فاذا تكشفت خرافة أن فرعون رب ، وظهر للناس أنه مثلهم فى الخضوع أمام رب العالمين • وفى الحاجة الدائمة اليه ، وأنه مع الملأ الذين يحكمونهم محكومون بقدرة الله وارادته • ذاب المظهر الكاذب ، وضاع المجد الزائف ، ومن ثم قالوا لفرعون « أتذر موسى وقومه ليفسدوا فى الارض ويذرك وآلهتك • قال سنقتل أبناءهم ونستحى نساءهم وانا فوقهم قاهرون » •

ولا شبح المذبحة من جديد لبنى اسرائيل ••
(لم يكن سهلا ••)

لم يكن من السهل ـ فيما يبدو ـ على فرعون قتل موسى وهارون فقد كانت هناك ـ كما قدمنا ـ معارضة فى ذلك •

وكان هناك رأى عام يستقبح حدوث ذلك ، وخاصة بعد أن شاع وذاع • وملأ الأسماع نبأ المعجزة الباهرة التى قهرت المهرة من السحرة، وحملتهم على أن يؤمنوا ويعلنوا ايمانهم على رءوس الأشهاد بهذه الصورة الرائعة المؤثرة •

ويمكن مع ما ذكرنا أن نلحظ هذه المعارضة فيما حكاه القرآن عن فرعون حين قال « ذرونى أقتل موسى وليدع ربه انى أخاف أن يبدل دينكم أو أن يظهر فى الأرض الفساد » فان كلمة ذرونى تفيد أنه كان هناك من يعوقونه أو يمنعونه • أو يشيرون عليه بغير ما كان يرى •

فاذا وضعنا فى موضع الاهتمام من تقديرنا أن سواد الشعب المصرى لم يكن سعيدا بنظام الحكم الذى كان سائدا • ظهرت لنا خطورة المغامرة بقتل موسى وهارون •

فقد كانت خيرات أرضه • وثمرات جهده تنفق على الكهنة ، وتغدق على الطبقة الحاكمة الظالمة التى يعبر عنها القرآن بكلمة « آل فرعون » وبكلمة « الملأ » وهم السادة الاشراف والقادة الحاكمون كما قدمنا .

ثم ان الانصاف يقتضينا ـ كما اقتضى الشعب ـ أن نشعر بأن

بنى اسرائيل - مع ما كانوا عليه من لؤم وخيانة وغدر - لم يكن من العدل قتل الأبرياء من أبنائهم واستحياء نسائهم .

ومن ثم كان دعاء موسى مقصورا على هذه الطبقة الحاكمة الظالمة حين قال « ربنا انك آتيت فرعون وملأه زينة وأموالا فى الحياة الدنيا ربنا ليضلوا عن سبيلك ربنا اطمس على أموالهم واشدد على قلوبهم فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم » .

(النظام والظالم)

هذا الى أن تسخير بنى اسرائيل لم يكن لمصلحة الشعب عامة بل كان لفرعون وللملأ من حوله خاصة .

ولعل ذلك يمكن أن يلحظ فى أسماء المدن والقصور التى سخر هؤلاء فى بنائها ، مثل مدينة « برر عمسيس » فان معناها - كما يقال - قصر رعمسيس ، ومثل مدينة « برثوم » فان معناها - كما يقال أيضا - بيت الاله ثوم ، وقد يكون بناؤها لخدمة أمزجة أخرى لطبقة أخرى كانت لا تقل عن طبقة البلاد أو الحاشية أو الملأ من حول فرعون ، وهى طبقة الكهنة .

وكان هذا النظام - كما قدمنا - مصدر شقاء وعناء لعامة الشعب فان السخرة كانت شبه عامة ، وأقرب دليل على ذلك أن الأمل الذى كان يراود خيال السحرة حين قدموا على فرعون من سائر المدن والامصار هو الأجر على النصر ، فقد قدموا بين يديه هذا السؤال « أئن لنا لأجرا ان كنا نحن الغالبين » فأجابهم بقوله : نعم ، ومناهم بشرف القرب منه والزلفى لديه فقال : « وانكم اذا لمن المقربين » .

كان زوال هذا النظام اذن أملا يتطلع اليه الشعب عامة ، وبنو اسرائيل خاصة ، وكانت دعوة موسى فى صميمها دعوة تحرير عامة . مثل كل الدعوات والرسالات التى بعث بها الأنبياء وتلقوها من السماء .

وقد ظهر موقف مصر صريحا من موسى وفرعون ، ولم يظهر لبنى اسرائيل كثير أو قليل .

وهنا ينتهى بنا الحديث الى نقطة هامة يمكن أن نفسر بها ماصار اليه أمر فرعون وملئه ، فقد جرت سنة الله فى الكون منذ كان بأن يعصف بالطغاة المترفين بعد امهالهم واقامة الحجة عليهم ، واذا كان تفصيل ذلك يطول . فحسبنا فى ذلك أن نذكر قوله تعالى « واذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميرا » .

(نهاية الطغيان)

اذا استقرأنا أحداث التاريخ . وسير الأفراد والجماعات وجدنا أن نهاية الطغيان كانت دائما ـ ولا تزال ـ النكال والوبال على الطاغين الباغين ، فان ذلك قاعدة من القواعد العامة المطردة ، وسنة من سنن الله فى خلقه « ولن تجد لسنة الله تبديلا » .

ويلاحظ مع ذلك أن الطغيان قلما ينفك عن الغنى والسلطان ، وذلك بعض ما يفهم من قوله تعالى : « ان الانسان ليطغى أن رآه استغنى » وذلك ما يستفاد من وقائع الحياة وشواهد التاريخ فى الغابر والحاضر

وحسبنا من الماضى أن نذكر قارون ، فقد كان من قوم موسى ثم آتاه الله خيرا كثيرا من الكنوز فبغى وطغى وقال « انما أوتيته على علم عندى » ثم خسف الله به وبداره الأرض « فما له من فئة ينصرونه من دون الله وما كان من المنتصرين » .

وهذا الداء العياء الذى عاناه موسى من قارون هو نفسه الداء العياء الذى عاناه من آل فرعون وقال : « ربنا انك آتيت فرعون وملأه زينة وأموالا فى الحياة الدنيا . ربنا ليضلوا عن سبيلك ربنا اطمس على أموالهم واشدد على قلوبهم فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم » .

وهذا الداء هو الذى عاناه هود عليه السلام من قوم عاد ، فقد آتاهم الله قوة فى الخلق . وبسطة فى الرزق « فاستكبروا فى الأرض بغير الحق وقالوا من أشد منا قوة » ولم يذكروا « أن الله الذى خلقهم هو أشد منهم قوة » ثم كان مصيرهم كما يقول الله فيهم « فأرسلنا عليهم ريحا

صرصرا فى أيام نحسات لنذيقهم عذاب الخزى فى الحياة الدنيا . ولعذاب الآخرة أخزى وهم لا ينصرون » .

بل ان هذا الداء نفسه هو ما نعانيه وتعانيه الانسانية من طغاه الاستعمار والصهيونية ، وستمضى سنة الله مع هؤلاء كما مضت مع أولئك الذين كانوا يقولون « من أشد منا قوة » ولا يذكرون أن الله الذى خلقهم هو أشد منهم قوة .

وستمضى مع المؤمنين كما يقول الله « وكان حقا علينا نصر المؤمنين » .

(الأرض لله)

عاد شبح المذبحة — كما قدمنا — يقترب من بنى اسرائيل ..

وعلم موسى أن فرعون ماض فى غلوائه وكبريائه واستهتاره بأرواح الأبرياء من صغار أبناء قومه ..

ولما علم بنو اسرائيل ما ينتظرهم من المحن والفتن تملكهم الرعب ولم يجدوا فى أنفسهم قوة تعينهم على مجرد الصبر والاحتمال .

فقد قال لهم موسى « استعينوا بالله واصبروا ان الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين » فكان جوابهم ما قدمناه مما حكاه القرآن عنهم « أوذينا من قبل أن تأتينا ومن بعد ما جئتنا » وهو جواب ينم عن عدم الايمان بالله والثقة بعونه ونصره . كما ينم عن شعورهم بهوان القدر ، والعجز عن الصبر ، ولعلهم كذلك لم يكونوا يؤمنون بأن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده ، وانما كانوا يؤمنون بأنها لمن يحتلها ويستغلها من محترفى الغزو والسطو والسلب والنهب ، ومن ثم كان جوابهم يشعر بما تنطوى عليه قلوبهم من الاحساس بالبؤس واليأس .

لم يكونوا — كما قدمنا — فى العير ولا فى النفير .

ولكن الله لم يكن غافلا عما يعمل الظالمون معهم ومع غيرهم من سواد الشعب وعامة أهل مصر ، فقد استجاب لموسى وأخيه .. وقال « قد أجيبت دعوتكما » .

وأخذ الله آل فرعون بالسنين ونقص من الثمرات وتعرضت مصر لألوان من البلاء والشـــقاء ، وأحس أعداء موسى بالحاجة الى دعـــائه ، وقالوا « يا موسى ادع لنا ربك بما عهد عندك لئن كشفت عنا الرجز لنؤمنن لك ولنرسلن معك بنى اسرائيل » وكشف الله عنهم الرجز .
ولكنهم عادوا الى ما كانوا عليه .

(محنة عامة)

تعرضت البلاد بعد هذا الذى كان من فرعون وآله لألوان من البلاء وضروب من الخطوب .

أصيبت تربتها بالقحط والجدب ، ونقصت ثمراتها بالجوائح الجوية والآفات السماوية ، وغرقت أرضها بطوفان اختلف المفسرون فيه ، هل كان من النيل أو كان من مطر غزير ، وهجمت جيوش جرارة من الجراد تجتاح الأخضر واليابس ، وامتلأ الجو بالبعوض ، وكثرت الدبا « بفتح الباء » فى الارض ، « وهو الجراد قبل أن تنبت أجنحته أو أرجال الجراد كما يقال » ، وكثرت الضفادع حتى نغصت على الناس حياتهم ، فكانوا يجدونها فى فراشهم وبين ملابسهم ، ويفاجئون بها وهى تقفز الى أوانيهم حين يأكلون وحين يشربون .

كانت النقمة عامة . وكانت بلاء من السماء لم يصب الطبقة الحاكمة وحدها . وانما شمل الناس جميعا بما فيهم الكهنة وعامة الشعب .

وعرف الناس أو الملأ من قوم فرعون أن ذلك قد يكون نتيجة دعوة موسى حين قال « ربنا اطمس على أموالهم » فهرعوا اليه يسألونه أن يسأل الله كشف الضر عنهم فأجابهم الى ما طلبوا ، وكشف الله عنهـم الضر ، ولكنهم عادوا فنكثوا كما يقول الله « فلما كشفنا عنهم الرجز الى أجل هم بالغوه اذا هم ينكثون » .

قد يقول قائل وما ذنب الأبرياء من الشعب حتى يؤخذوا بجرم غيرهم .. ؟

وجواب ذلك فى قول الله تعالى : « واتقوا فتنة لا تصيبن الذين

ظلموا منكم خاصة » وقول النبى صلى الله عليه وسلم « ان الناس اذا رأوا الظالم فلم يأخذوا على يديه أوشكوا أن يعمهم الله بعذاب » .

وقد كان الموقف يقتضى من الشعب أن يقوم بدور ايجابى بعد أن ظهر له حق موسى وباطل فرعون وآله . مهمـــا يكن شعوره نحو بنى اسرائيل ولكنه لم يفعل ..

مؤامرة

لم يستطع فرعون أن يبطش بموسى وأخيه ـ كما قدمنا ـ خوفا من ثورة عارمة قد يقوم بها الشعب ضده ، ولعله كان يعرف مقدار ما يكنه الشعب من كراهية لبنى اسرائيل ، فاطمأن الى أنه لن يثور عليه اذا عمد الى اساءتهم واذلالهم .

ولكن موسى مع ذلك لم يقلع عن دعوته الى دينه . ومتابعته بطلب اطلاق سراح بنى اسرائيل .

وأوحى الله اليه والى اخيه « أن تبوءا لقومكما بمصر بيوتا ، واجعلوا بيوتكم قبلة . وأقيموا الصلاة » فكانوا يجتمعون للعبادة سرا فى منازلهم على خوف من فرعون وقومه .

وضاق فرعون ذرعا بموسى ، وعقد مع الملأ مؤتمرا للفتك به سرا ، ولكنه فوجىء برجل من أعضاء المؤتمر ينهض لمعارضة هذه الفكرة ويقول « أتقتلون رجلا أن يقول ربى الله وقد جاءكم بالبينات من ربكم » . فان يك كاذبا فعليه كذبه وان يك صادقا يصبكم بعض الذى يعدكم ان الله لا يهدى من هو مسرف كذاب ، يا قوم لكم الملك اليوم ظاهرين فى الأرض فمن ينصرنا من بأس الله ان جاءنا .. ؟

وهال فرعون ما سمع . فأخذته العزة بالاثم ، ونفخ الشـــيطان فى روحه ، فقال « ما رأيكم الا ما أرى وما أهديكم الا سبيل الرشاد » .

وعاد الرجل يعقب على كلام فرعون ، ويحذر قومه من غضب الله وبطشه ، ويذكرهم بما حدث لغيرهم من الطغاه العتاه ثم أعلن أنه أبرأ ذمته وقال : « فستذكرون ما أقول لكم وأفوض أمرى الى الله ان الله بصير بالعباد .

وانفض المؤتمر بالفشل فى تدبير خطة لاغتيال موسى • فدبر خطة أخرى لاقامة مظاهرة •

(المظاهرة ••)

كان الغرض من هذه المظاهرة ـ كما قدر فرعون ـ ايهام العامة والدهماء أنه أعلى من أن يطال وينال • وأن موسى أهون من أن يرتفع الى مناهضته ومعارضته •

لقد كان يملك مصر ، وتجبى اليه ثمرات مصر ، وتجرى بين يديه أنهار مصر ، وله غير ذلك الذهب الذى يخطف بريقه الأبصار ، والقدر الذى تتطامن دونه الأقدار ، فكيف يجرؤ موسى على انتقاص قدره وتهوين أمره ، وصرف الناس عن عبادته الى غيره •

واجتمع الناس من كل صوب وحدب ، وتطلعت أعينهم ترقب ظهور الاله الزائف فى حلله وحلاه ، فلما ظهر خشعت الأصوات وأصغت الأذهان ، ونفتحت الآذان ، ثم تكلم فرعون بما حكاه القرآن « يا قوم أليس لى ملك مصر وهذه الأنهار تجرى من تحتى أفلا تبصرون ، أم أنا خير من هذا الذى هو مهين ولا يكاد يبين ، فلولا ألقى عليه أسورة من ذهب أو جاء معه الملائكة مقترنين » •

وظفر من هذه الخطبة بما كان يريد من خفاف العقول وضعاف الأحلام ، اذ كان ما حكاه القرآن حيث يقول « فاستخف قومه فأطاعوه انهم كانوا قوما فاسقين » •

كان التهريج هو المنطق الذى عمد اليه فرعون للخداع واستمالة ذوى الأطماع ، وكان الذهب الذى بدا فيه • وتحدث عنه دليله أمام الفقراء والدهماء على سمو مقامه وعلو شأنه •

وغاب عنه أو تناسى أن موسى يدعوه الى الايمان بمن بيده ملكوت السموات والأرض •• الى الايمان بمن يؤتى الملك من يشاء وينزع الملك ممن يشاء ويعز من يشاء ويذل من يشاء •• الى الايمان بمن بيده الخير وهو على كل شىء قدير •

آخر الدواء

لم تفلح الآيات البينات التى واجه بها موسى فرعون وآله فى صرفهم عن عنادهم وغلوهم وعتوهم ٠

فالعصا التى صارت بقدرة الله حية تسعى نسبوها الى السحر ، وقالوا عن صاحبها « أن هذا لساحر عليم » ، على الرغم من أن أهل العلم بهذا الفن وهم مهرة السحرة أيقنوا أنها من آيات الله ، وأعلنوا عجزهم عن الاتيان بمثلها ، وآمنوا بالله رب العالمين ٠

وألوان البلاء التى نزلت بهم نتيجة استجابة الله لدعاء موسى عليهم لم تحملهم على الايمان به ، أو اطلاق سراح قومه معه ، بل كانوا كما يقول الله فيهم « وان تصبهم سيئة يطيروا بموسى ومن معه » ٠

وكشف البلاء عنهم نتيجة استجابة الله لدعاء موسى لهم لم يقابلوه بما ينبغى من العدول عن طريق الغواية الى طريق الهداية ، ومن تحقيق ما وعدوا به موسى حين قالوا « ادع لنا ربك بما عهد عندك اننا لمهتدون » بل ما لبثوا أن نكثوا العهد ، وأخلفو الوعد ، وعادوا الى استكبارهم واستهتارهم ، كما يقول الله « فلما كشفنا عنهم العذاب اذا هم ينكثون »

هذا الى أن موقفهم من موسى وانكارهم آياته ٠ لم يكن استجابة لعقيدة راسخة يحرصون عليها ٠ وايمان قوى يطمئنون اليه ، بل كان استجابة لنزعة نفسية آثمة ظالمة ٠ تزين لهم العلو والعتو والافساد فى الأرض ، كما يقول الله فيهم « وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلما وعلوا » ٠

لقد بدأهم موسى بالملاينة ٠٠ ثم بالمخاشنة ٠ ثم أنذر وأعذر ٠ فلم ينجح فى حملهم على الايمان ٠ ولم يفلح فى صرفهم عن الطغيان ٠ بل أنفوا أن يؤمنوا بما جاء به ، واستنكفوا أن ينزلوا عن درجة السيادة الى الدرجة التى يتساوى الناس فيها أمام رب العالمين ٠

ولم يبق الا آخر الدواء وهو الكى ، والا أن تحق عليهم كلمة العذاب تطبيقا لسنة الله ٠ وتصديقا لقوله تعالى « ولا يزال الذين كفروا تصيبهم بما صنعوا قارعة أو تحل قريبا من دارهم حتى يأتى وعد الله » ٠

(رحيل بنى اسرائيل ...)

كان تدبير الله فوق ما كان يقدر ويدبر آل فرعون ..

فقد أوحى الله الى موسى أن يجمع قومه ويرحل بهم بعيـدا عن مصر ..

وتناقل بنو اسرائيل نبأ التعجيل بالرحيل . وتواصوا بكتمانه حتى لا يعلم به آل فرعون فينكشف الأمر ، وتفسد الخطة التي كانوا يرون فيها آخر حبل للنجاه ..

واسرعت الاسرائيليـات فاسـتعرن من المصريـات حليهن وأدوات زينتهن من الذهب والفضة بقصد سرقتها أو سلبها أو نهبها أو ما الى ذلك من الأسماء التى يمكن أن يسمى بها هذا العمل ..

وهذه الرواية ـ اذا صحت ـ كانت دليلا على ما قدمناه من أن الأمر بالرحيل ظل فى طى السر والكتمان حتى علم به فرعـون بعد فـوات الأوان ..

ثم ان قوله تعالى « وأوحينا الى موسى أن أسر بعبادى » يشعر بذلك ويشير اليه ، فان الايحاء هو الاعلام فى سرعة وخفاء ، كما أن قوله تعالى فى آية أخرى «فأسر بعبادى ليلا انكم متبعون» يرجح أن الخطة كانت مدبرة. وأن تنفيذها كان يكتنفه الحذر واتقاء الخطر بدليل قوله « ليلا »

وعلى هذا أكاد أجزم بعدم صحة ما قيل من أن فرعون سمح لبنى اسرائيل بالرحيل ليخلص هو وقومه من العذاب الذى حل بهم نتيجة لدعاء موسى عليهم ، ثم بلغه ما فعلته الاسرائيليات مع المصريات من خداعهن واستعارة حليهن ، فجمع جنوده . وسار خلفهم ليدركهم قبل أن يفلتوا بما حملوه من الذهب والفضة وأدوات الحلى والزينة .

نعم . أكاد أجزم بعدم صحة هذا . للقرائن التى ذكرتها ولأنه لو كان الأمر بالرحيل جهرا لعلمت به المصريات وأزواجهن وانكشف القناع عن خداع الاسرائيليات ، وفاتت عليهن فرصة السـلب والسرقة التى تحدث عنها الرواة .

الى غير رجعة ..

أسرع موسى وقومه الى الهرب فى ظلام الليل .

وساروا تخفضهم الوهاد . وترفعهم النجاد . وتحيط بهم المخاوف.

وأسرع فرعون حين تناهى اليه النبأ . فجمع جنوده من المدائن ، وسار بهم اثر موسى وقومه عسى أن يلحق بهم قبل أن يفلتوا منه ، فيردهم الى ما كانوا فيه من ذل العبودية ، أو يفتك بهم ويستأصل شأفتهم من البلاد .

وأشرقت شمس يوم على جمع يتبع جمعا ويجد فى طلبه ليطبق عليه ..

ورأى بنو اسرائيل الخطر الزاحف خلفهم وهو يقترب منهم ، فتملكهم الذعر والخوف ، وأيقنوا أنهم هالكون ، فصاحوا بموسى : « انا لمدركون »

ولكن موسى عليه السلام كان يعرف وعد الله ، ويثق بنصره فقال : « كلا ان معى ربى سيهدين »

ثم بلغوا الساحل من البحر الأحمر على خليج السويس قبل أن يلحق بهم فرعون وجنوده .

وأوحى الله الى موسى أن يضرب البحر بعصاه ، فضربه فانفلق وانحسرت الأمواج عن طريق معبد ممهد فيه ..

وسار موسى مع قومه فى هذا الطريق تحيط به من جانبيه لجج كالجبال ..

وأشرف فرعون على الموضع الذى عبروا منه .. واقتحم الطريق خلفهم ليدركهم قبل أن يصلوا الى الشاطىء الشرقى ، ويردهم الى ما كانوا فيه ..

ولكنه ما كاد يتوسط البحر حتى كان بنو اسرائيل قد خرجوا منه ..

ثم أطبق عليه الموج . وأدركه الغرق فقال : « آمنت بالذى آمنت به بنو اسرائيل وأنا من المسلمين »

ولكن هذا الايمان كان بعد فوات الأوان .

عاقبة المفسدين ..

لقى فرعون ومن كان معه عاقبة الـــكفر والجور والطغيـــان وهم يتعقبون موسى وقومه فى الطريق الذى انفلق عليه البحر ..

وحق عليـــهم أن يلقـــوا المصير الذى كتبه الله على المتجبرين المستكبرين المستهترين فى كل عصر وجيل .

ولو أنهم انعظوا بما شاهدوا من قدرة الله فى انفلاق البحر بعصا موسى لغنموا السلامة وقنعوا من الغنيمة بالاياب .

ولكنهم مع هذه المعجزة الباهرة القاهرة لم يتعظوا بها ، بل تمادوا فى الاصرار على العتو والاستكبار ، وكانوا كما يقول الله « كذلك يطبع الله على كل قلب متكبر جبار » .

ولعلهم تذكروا وهم فى غمرات الموج وســـكرات المـوت . ذلك الصوت الناصح المشفق الذى انطلق به لسان مؤمن منهم وهم يأتمرون بموسى ليقتلوه « يا قوم لكم الملك اليوم ظاهرين فى الأرض فمن ينصرنا من بأس الله ان جاءنا » « ياقوم انى أخاف عليكم مثل يوم الأحزاب ، مثل دأب قوم نوح وعـاد وثمود والذين من بعدهم وما الله يريد ظلما للعباد » .

فقد صاح فرعون حين أدركه الغرق يعلن ايمانه واذعانه ، ويقول « آمنت بالذى آمنت به بنو اسرائيل وأنا من المسلمين » .

وقد تواضع وتخاشع حتى قرن نفســه بهؤلاء الأذلاء الذين كان يســـتعبدهم ويحتقرهم .ويزدريهم ، وكان على الرغم منه أن يؤمن بمن كان يكفر به ، ويذعن لمن كان ينفر منهم ..

ولكن ذلك كان كما قدمنا بعد فوات الأوان ..

فلم يقبل الله منه ــ ولا يقبل من غيره ــ أن يؤمن وهو مكره على الايمان ، وانما يقبل الايمان الناشىء عن عقل ، الصادر عن اختيار وايثار.

ومن ثم كان رده على فرعون : « آلآن وقد عصيت قبل وكنت من المفسدين ، فاليوم ننجيك ببدنك لتكون لمن خلفك آية » .

ولا يزال بدنه فى المتحف المصرى حتى الآن يحمل اسم « منفتاح » تصديقا لقول الله .

(بعيدا عن الشعب)

استراح الشعب المصرى من بنى اسرائيل ومن آل فرعون بهذا التدبير الالهى من الله الحكيم العليم ..

فقد ذهب فى جوف البحر أولئك الظالمون الآثمون . وتركوا خلفهم ما كانوا يستغلونه ويستحلونه من ثمرات الأرض . وعرق الكادحين ..

ولسنا نلقى القول على عواهنه حين نصفهم بذلك ، فان القرآن الكريم يصف ما كان عليه حالهم ، وما انتهى اليه أمرهم ومآلهم فيقول : « كم تركوا من جنات وعيون ، وزروع ومقام كريم ، ونعمة كانوا فيها فاكهين . كذلك وأورثناها قوما آخرين . فما بكت عليهم السماء والأرض وما كانوا منظرين » .

وذهب أيضا أولئك الدخلاء الذين تسللوا الى مصر . وعاشوا فى ظل الغزاة الطغاة من العمالقة أو الهكسوس يجبون لهم الأموال . ويرصدون لهم الأحوال . وينشرون الفساد فى البلاد حتى كرههم المصريون وتركوهم يقاسون سوء العذاب من فرعون وآله ورجاله .

وبقيت طائفة أخرى لو شاء الله أن يتم نعمته على مصر لأراحها منها : وهى طبقة الكهنة ..

فقد أوهموا الناس أن فرعون سحق بنى اسرائيل ، وسجلوا ذلك على حجر من الجرانيت عثر عليه كما يقول الشيخ عبد الوهاب النجار نقلا عن العلامة « فلندرس بترى » .

وكان ذلك بقصد التمويه . وقلب الحقائق . لكى يستروا عن الشعب خذلانهم وخذلان الههم أمام موسى ، ولكى يظل الشعب على ولائه لبيت الملك واحترامه لديانة هؤلاء .

هذه المعجزات ..

قد يكون من المناسب فى هذا المقام أن نذكر شيئا عن هذه المعجزات التى ظهرت على يد موسى عليه السلام ، وعن معجزات غيره من

الأنبياء بصفة عامة · حتى لا يقع فى نفوس القراء لبس بين عمل المخلوق وعمل الخالق ··

ان معجزات موسى فى العصا التى انقلبت حية تسعى ، وفى اليد التى أدخلها فى جيبه ثم أخرجها بيضاء كالثلج من غير سوء ، وفى انفلاق البحر ليفسح له ولقومه طريق النجاة من فرعون وجنوده ·

ومعجزات عيسى عليه السلام · فى ابراء الأكمه وشفاء الأبرص واحياء الموتى · واخبار الناس بما يأكلون ويدخرون فى بيوتهم ·

ومعجزة محمد عليه الصلاة والسلام فى هذا القرآن الذى كان ولا يزال وسيظل معجزة الانس والجن حتى يرث الله الأرض ومن عليها ·

ومعجزة ابراهيم عليه السلام من قبل هؤلاء حين ألقى فى النار فصارت بردا وسلاما عليه ··

كل هذه المعجزات وغيرها من عمل الله ، ولا فضل فيها لأحد سواه ، فليس لنبى يد فى هذه الخوارق التى بهرت الناس وقهرت الخلق وقامت أدلة صادقة على صدق من ظهرت على أيديهم فى أنهم مبلغون عن الله سبحانه ·

وعلى هذا الاساس لا يستغرب ولا يستبعد وقوعها ممن لا يعجزه شىء فى الأرض ولا فى السماء ، فانه جل شأنه كما يقول « انما أمره اذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون » ·

وعلى هذا الاساس أيضا لا مجال للمقارنة والموازنة بين معجزة ومعجزة ، لأنها جميعها لا تفاوت بينها أمام قدرة الله جل شأنه ·

فاذا قلنا ان القرآن أمجد وأخلد معجزة جاء بها نبى فلسنا نعنى أن لمحمد عليه الصلاة والسلام أى فضل فيه ، وان كان له شرف تلقيه ·

(فرعون فى الميزان)

ضمنى مع بعض كبار العلماء والمثقفون مجلس ··

وجرى الحديث حول موقف فرعون من بنى اسرائيل ، ومدى ما كان فيه من جور أو عدل ··

فكانت المفاجأة الغريبة أن يسمع الجميع من شيخ كبير أن فرعون كان عظيما وكريما فى موقفه من بنى اسرائيل ٠٠ !

وذلك أن هذا الكـلام يبدو متعارضـا مع القـرآن ، ولهذا طلبوا تفسيره أو تعديله أو تأويله بما يتفق مع كلام الله ٠

وأنصت الجميع ينتظرون ٠٠

وتكلم فضيلته فقال : لندع الحديث عن القرآن الآن ثم لنعد اليه بعد تحرير الكلام فى هذا المقام ٠٠ ثم سأل قائلا :

ماذا يفعل أى حاكم ٠ عادل أو ظالم ٠ فى قوم دخلاء غرباء وجدوا فى بلاده المرعى الخصيب ٠ والعيش الرطيب ٠ والضيافة الكريمة على الرغم من أن أهلها يكرهونهم ، ثم وجدهم بعد ذلك ٠ وبعد طول الاقامة فى بلاده خونة وجواسيس ٠ ومثار فتن ودسائس وأذنابا لأعدائه وأعداء قومه ٠ يعملون على هدم وطنه واستعباد أهله ٠ ؟

قال قائل : أيقتل أطفالهم ، ويستحيى نساءهم ، ويسخرهم فى تعبيد الطرق وبناء المدن كما فعل فرعون ٠٠ ؟

قال وهل ذلك ـ مع مجافاته للحق والانسانية ـ يعد شـيئا اذا قيس بما وقع عليهم من بختنصر وهتلر وأباطرة الرومان ، وما عانوه من المذابح التى أكلت رجالهم ونساءهم وأطفالهم فى روسيا وأسبانيا ٠ وفى كل مكان كان لهم فيه كيان ؟

ان هؤلاء كانوا وراء كل فتنة عامة ، وخلف كل محنة انسانية فى كل عصر ، ولم يكن هلاك فرعون تكريما لهم ، وانما كان انتقاما بسبب ما آل اليه أمره من الطغيان حتى انتهى به الكبر الى الكفر والاصرار على الكفر وقال : « يأيها الملأ ما علمت لكم من اله غيرى » ٠

(فرحة النجاة ٠٠)

طبيعى أن يفرح بنو اسرائيل بعد أن أنجاهم الله من قبضة فرعون وأيدى رجاله ٠

فقد تجرعوا مرارة الذل والهوان أحقابا طوالا ، وعانوا من البؤس

وسوء العذاب خطوبا ثقالا ، ورأوا بأعينهم أطفالهم الذكران يؤخذون ويذبحون أمامهم فلا ينطلق منهم صوت باعتراض ، ولا يرتفع لأحد منهم وجه بامتعاض ٠

ان كل ما عانوه وقاسوه من هؤلاء الذين طغوا وبغوا عليهم وعلى الشعب المصرى معهم قد ولد فى نفوسهم عقدا وأحقادا لم يكن يحلها أو يشفيها الا أن يروا بأعينهم جلاديهم يلقون مصارعهم ، ويستعينون بهم ٠

وها هو ذا فرعون يطبق عليه الموج فيغوص فيه ، ويطفو فوقه ، ويتلاشى صوته المتقطع المختنق الذليل بين هدير الموج ٠ وعصف الرياح٠

وها هم أولاء أعوانه الطغـــاة تتقاذفهم الأمواج ٠ فتفرق جمعهـم وتمزق شملهم ، ثم تلقى بأجسامهم فوق الماء كأنهم غثاء ٠

فكيف لا يفرح بنو اسرائيل بنجاتهم وهلاك أعدائهم ٠٠ ؟

ولكن فرحتهم لم تكن ـ فيما يبدو ـ بما ينبغى للمؤمنين أن يتلقوا به نعمة الله ولهذا أهمل القرآن الحديث عنها ٠

أما التوراة فقد ذكرت أن مريم أخت هارون أخذت الدف وخرج وراءها جميع نساء بنى اسرائيل يدففن ويرقصـــن لنجاتهم وهـــلاك عدوهم ٠

ثم كان ما هو أفظع من ذلك وأشنع ٠

كان الكفر والمكر ٠ وما عرف به بنو اسرائيل من قديم ٠

(طبيعة الجحود)

فلم يكد بنو اسرائيل يمضون مع موسى بعد خروجهم من البحر ونجاتهم من آل فرعون ٠ حتى رأوا قوما يعبدون أصناما لهم ، فنسوا كل ما كانوا يذكرونه من آيات موسى ، ونجاتهم مع موسى وقالوا ما حكاه القرآن اذ يقول الله فيه « وجاوزنا ببنى اسرائيل البحر فأتوا على قوم يعكفون على أصنام لهم ٠ قالوا يا موسى اجعل لنا الها كما لهم آلهة ٠

قال انـــكم قوم تجهلون ، ان هؤلاء متبر ماهم فيـــه وباطل ما كانوا يعملون » ٠

والفاء فى قوله تعالى : « فأتوا » تفيد ـ كما هو معروف ـ الترتيب والتعقيب ، ومعنى ذلك أنه لم يمض وقت بعد خروجهم من البحر ونجاتهم من الهلاك حتى عادوا الى الوثنية التى الفوها ، وألفوا الذل معها ٠

وهذا يدل على أن الايمـــان لم يخـالط قلوبهم ، ولم يتمكن من ضمائرهم ومشاعرهم ، ولم يثمر فيهم الثمرة الطبيعية لكل شجرة طيبة ، وانما كان ايمانهم بموسى ايمانا بامامته وزعامته لا ايمانا بالله الذى خلقه وسواه ٠

وهو أيضا يدل على بلادة الطبع الذى لم يتأثر بكل ما شـــاهد من آيات ومعجزات ، ولم تفلح فى تهذيبه المحن والحادثات ٠

ولو أنهم كانوا ذوى حساسية دقيقة ٠ وشعور مرهف لنفروا من كل ما يذكرهم بماضيهم ومآسيهم من صور الوثنية ٠

ولكنهم لم يذكروا ماكانوا فيـــــه من ذل وهوان ، ولم يذكروا من أنجاهم من الذل والهوان ٠

انما نسوا الماضى ، ونسوا الله الذى أنجاهم من ظلام الماضى وقالوا : « يا موسى اجعل لنا الها كما لهم آلهة قال انكم قوم تجهلون » ومن معانى الجهل الطيش وضعف العقل ٠

مع موسى ٠٠

انتهت قصة بنى اسرائيل مع فرعون لتبدأ بما فيها من كفر وغدر مع موسى وهارون عليهما السلام ٠

ولو كان موسى مجرد زعيم مخلص عرض حياته للخطر مرتين من أجل انقاذهم ، لكان له عليهم حق السمع والطاعة والاخلاص له ٠ وامتثال أمره ٠ واتباع هداه ٠

ولكنه فوق ذلك رسول من الله مؤيد بالمعجزات البـــاهرة والآيات الظاهرة ، ومع ذلك لم يجد منهم الا العناء والشقاء ٠

فقد عادوا الى الوثنية حين وجدوا قوما يعكفون على أصنام لهم وكان ذلك قبل أن تسقط رمال البحر الرطبة من أقدامهم وقبل أن تمضى برهة بعد نجاتهم من الهول الذى كاد يطبق عليهم ٠٠ وقد رأوا بعد ذلك من آيات موسى ٠ ومن آثار رحمة الله ما يؤمن به الكافر ، ويتقى به الفاجر ، فكان منهم ماكان قبل أن يكون ، بينهم نبيهم ٠ وقبل أن يرسل اليهم ٠

أحسوا الحاجة الى الماء فى صحراء سينا وقريبا من ساحل البحر الأحمر ، فشكوا ذلك الى موسى ، فضرب بعصاه الحجر ، فانفجرت منه اثنتا عشرة عينا ، لكل سبط أو قبيلة منهم عين ٠ يتدفق منها الماء البـــارد الصافى ٠

وأحســـوا الحاجة الى الظل يقيهم حرارة الشمس ، ويحميهم من شعاعها المحرق ، فأرسل الله عليهم الغمام يظللهم ٠ ويرطب رمال الصحراء تحت أقدامهم ٠

وأحسوا خطر الجوع والهلاك منه ، فأرســـل الله الرياح تحمل لهم « المن » وهو طعام حلو يشبه الصـــمغ كانوا يجدونه على أوراق بعض الأشجار ، وتحمل اليهم « السلوى » وهى طيور كالسمانى كانت تقع على الأرض ، وتكاد تغطيها ، فيأخذ كل منهم حاجته منها ٠

كان ذلك ابتلاء بالنعم بعد الابتلاء بالنقم ٠ فكانت النعم مثل النقم فى تقديرهم ٠

(وهم ، وسوء فهم)

ولم تكن هذه النعم التى ذكرنا بعضها ايثارا من الله لبنى اسرائيل كما وهموا وزعموا ٠ وراحوا يملئون أشداقهم بأنهم « شعب الله المختار » وأنهم خلقوا من نطفة أخرى غير ما خلق منه النـــاس ٠ من جميـــع الأجناس ٠

وانما كانت رحمة من الله الذى وسعت رحمته البر والفاجر والمؤمن والكافر ، فخلق الجميع ، ورزق الجميع ، وأنعم على الجميع ٠

ذلك لأن الله جل شأنه يستوى عنده من خلق من نار ومن خلق من طين ، ومن خلق من غير هذين العنصرين ، فكل ما عداه مخلوق له ، محتاج اليه ، والتراب والذهب يتفاضلان فى تقديرنا على أساس الحاجة اليهما والمنفعة التى تراد منهما ، ولا يتفاضلان فى تقدير الله ، لأنه لايشعر بحاجة ، ولا يسعى لمنفعة ٠

وقد خلق بنو اسرائيل كما خلق جميع أجناس الناس من ماء وطين، من هذه الأرض التى يقول الله فيها : « منها خلقناكم وفيها نعيدكم ومنها نخرجكم تارة أخرى » ٠

ولكنهم لا يفهمون شيئا على طبيعته واستقامته ، وانما يعكسون الأوضاع لتلتئم مع ما عرف عنهم من انحراف الطباع ٠

ومن ثم فهموا أن لهم مزية على غيرهم ، وأن الله قد أنجاهم من عدوهم ، وفجر لهم من الحجر اثنتى عشرة عينا ، وظلل عليهم الغمام وأنزل عليهم المن والسلوى ، وبعث فيهم كثيرا من الأنبياء والرسل ، لأنهم يستحقون ذلك على أساس ما يتوهمون من صفاء العنصر ونقاء الجوهر ، ولم يفهموا أن من رحمة الله بهم وبغيرهم أن يجيب المضطر اذا دعاه ويكشف السوء ٠

الفضل ٠ والخير

كتب لى طالب بكلية الحقوق فى جامعة الاسكندرية يؤيد ما كتبته تحت عنوان « فرعون فى الميزان » نقلا عن عالم جليل من أن فرعون كان عظيما وكريما مع بنى اسرائيل ، وأن عقابه بالغرق لم يكن تكريما لهؤلاء الذين يقول الله فيهم « ملعونين أينما ثقفوا » وانما كان انتقاما من فرعون لتكبره وتجبره وطغيانه وادعائه أنه اله يستحق أن يعبد من دون الله حتى قال لقومه « ما علمت لكم من اله غيرى » ٠

وقد أورد الطالب الأديب شواهد من التاريخ ثم تساءل كيف يقول الله فيهم « وانى فضلتكم على العالمين » ٠

وأحب أن أنبه الكاتب الفاضل الى أننى تناولت هذا الموضوع من قبل ، وفسرته على ضوء ما يفهم من كلمة « فضل » لغة لا عرفا .

وأعود فأقول : ان العرف ضيق مفهوم هذه الكلمة حتى صار يفهم منها الخير دون الشر ، أما مفهومها فى اللغة التى نزل بهـــا القرآن كما ترشدنا المراجع اللغوية فهو « الزيادة » أو كما قيل بالنص « الفضل ضد النقص » .

واذا وضعنا الى جانب قوله تعالى فى بنى اسرائيل : « وأنى فضلتكم على العالمين » قوله تعالى فى المسلمين « كنتم خير أمة أخرجت للناس » وقوله لهم « وجاهدوا فى الله حق جهاده هو اجتباكم » تعين لدينـــا ما ينطق به الواقع ، ويشهد به تاريخ هؤلاء ، من أن الزيادة التى تميزوا بها عن غيرهم من كثرة أنبيـــائهم الذين قتلوهم بغير حق . وكثرة نعم الله عليهم التى قابلوها بالكفر ، تشـــهد عليهم لا لهم ، وتصم تاريخهم بأنهم شر أمة أخرجت للناس .

ولعل الأديب الفاضل وغيره قد تبينوا الفارق الـكبير بين الفضل بمعناه الأصلى وهو الزيادة ، والخير بمعناه الأصلى وهو ضد الشر ، ويشمل كل ألوان البر .

ومن يك ذا فضل فيبخل بفضله   على قـــومه يســتغن عنه ويذمم

الشـــعب المفتون

على أن الظلال الخفيفة أو الكثيفة التى كان ينشرها الغمام فى جو صحراء سيناء وفوق أرضها حيث يسير هؤلاء أو يقيمون لم تكن كالظــلال الوارفة التى يتقلب فيها المقيمون فى منازلهم . أو القـــاعدون الى جوار الأشجار فى الحقول أو فوق شواطىء الترع والأنهار .

ولم تكن العيون التى انفجرت بعصا موسى من الحجر يتدفق منهـــا اللبن والعسل والخمر لهؤلاء الذين يزعمون أنهم « شعب الله المختار » وانما كان يتدفق منها الماء ككل عين يتدفق منها الماء .

وحتى هذا الطعام الحلو الذى يذكر المفسرون أنه يشبه الصمغ ، وأنه كان حلو الطعم • سهل الهضم وهو المسمى بالمن ، والطير الذى ساقه الله اليهم ليصيبوا منه ما يحتاجون اليه من اللحم •• حتى هذا لم يرضوا عنه، ولم يشكروا الله عليه ، بل قالوا « ياموسى لن نصبر على طعام واحد فادع لنا ربك يخرج لنا مما تنبت الأرض من بقلها وقثائها وفومها وعدسها وبصلها قال أتستبدلون الذى هو أدنى بالذى هو خير » •

كان ذلك رحمة من الله • ونعمة ممن يجيب المضطر اذا دعاه ، وكان على أنه خير مما ذكرنا وقدرنا ـ خليقا بأن يحرك فى نفوسهم وازع الشكر والشعور باطمئنان الايمان • والحرص عليه • والاعتصام به ، ولكنهم لم يذكروا الله حق ذكره ، ولم يشكروه حق شكره ، بل ما كاد يغيب عنهم موسى أربعين يوما حتى عادوا الى عبادة العجل وأشركوا بالله •

ثم هم مع ذلك يزعمون أنهم شعب الله المختـــار ، وأن الله كرمهم بالايثار ، وأنعم عليهم بأن جعل منهم أنبياءهم ، ولا يذكرون مع هذا أنهم كانوا يقتلون أنبياءهم بغير حق ، ويسعون فى الأرض فسادا والله لا يحب المفسدين •

انهم هم الذين لعنهم أنبياؤهم قبل أعدائهم ، كما يفهم من قول الله فيهم « لعن الذين كفروا من بنى اسرائيل على لسان داود وعيسى بن مريم• ذلك بما عصوا ، وكانوا يعتدون ، كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه لبئس ما كانوا يفعلون » •

(الشعب الشرير)

ليس هذا العنــوان من كلامى ، وانمـــا هو من كلام هارون عليه السلام كما ورد فى التوراة ، فقد كان موسى وعد بنى اسرائيل بشريعة تحكمهم وتنظم شئونهم بعد هلاك فرعون ونجاتهم منه •

ولما مضى بهم فى صحراء سيناء سأل الله أن يحقق وعده فأمره سبحانه أن يصعد الجبل ، ويصوم ثلاثين ليلة ، فترك موسى قومه وخلف معهم اخاه هارون نائبا عنه ، وقال له ما حكاه القرآن الكريم « اخلفنى فى قومى وأصلح ولا تتبع سبيل المفسدين » •

لكن بني اسرائيل ما كادوا يحسون غيبة موسى عليه السلام حتى فتنهم رجل منهم كان يدعى السامرى ٠

ويظهر أن هذا الرجل كان من الذكاء والدهاء بحيث تغلب على ما ركز في طبعهم من حرص على المال ٠ وتكالب على جمعه ، فقد جمع منهم حلى الذهب التى سرقتها نساؤهم من المصريات بدعوى الاستعارة أو سرقوها هم من المصريين بحيلة من الحيل التى مهروا فيها ، ثم قدم لهم عجلا أوهمهم أنه الههم واله موسى ، وطلب اليهم أن يعبـــدوه فأطاعوا وانصاعوا له ، وصاروا كما يقول الله «واتخذ قوم موسى من بعده من حليهم عجلا جسدا له خوار ، ألم يرو أنه لا يكلمهم ولا يهديهم سبيلا ، اتخذوه وكانوا ظالمين » ٠

(وتذكر التوراة أن موسى حين عاد ٠ وأبصر العجل ٠ ورأى قومه يرقصون حوله ٠ لام أخاه ، فاعتذر اليه بأن هذا الشعب شرير) ٠

أما أن الحلى وأدوات الزينة الذهبية كانت مسروقة من مصر فذلك ما يمكن فهمه من قولهم فيما حكاه القرآن الكريم عنهم ٠

« ولـــكنا حملنا أوزارا من زينة القوم فقذفنـــاها فـــكذلك ألقى السامرى » ٠

وهكذا اتبع بنو اسرائيل سبيل المفسدين،فأطاعوا السامرى وعصوا هارون ٠

خرافة قديمة

قد يقول قائل : سلمنا بما يشهد به الواقع ، وينطق به التاريخ وتشف عنه آيات القرآن من أن هذا الشعب مفتون ٠ ملعون ٠ شرير ، فمن أين أتاهم الغرور واعتقدوا أنهم شعب الله المختار ؟ ٠

والجواب عن ذلك أن ذلك الاعتقاد خرافة قديمة دسها الاحبار فى نفوس السبايا من بنى اسرائيل فى بابل ٠ ليجدوا فيها تسلية وتعزية عما كانوا يعانونه من بلاء وشقاء وذل ٠

وقد نعرض لهذا الموضوع بتفصيل طويل اذا اطرد بنا الحديث الى ذكر مآسيهم ومخازيهم فى كل ما مر به تاريخهم من أدوار وأطوار ٠

أما الآن فنحن بصدد التمهيد لشرح آيات متلاحقة يذكر الله بها بنى اسرائيـــل بما كان له عليهم من نعم ، وما كان منهم ازاءها من نــكران وكفران ٠

وقد أوردنا هذا الجانب الطويل من مبدأ حياة بنى اسرائيل لأنه على طوله مطوى فى هذه الآيات ٠

على أن هذه الخرافة التى تلقاها بنو اسرائيل من أحبارهم فى أيام محنتهم بالعراق وتغنوا بها فى أناشيدهم ٠ أصبحت عقدة نفسية وعقيدة دينية ، وبخاصة بعد أن ضخمها حكماؤهم وعلماؤهم وأدباؤهم وبنوا عليها قصور الأمانى فى كتاب الأضاليل والأباطيل الذى يعرف باسم « التلمود » ٠

وقد أدت هذه الخرافة وظيفتها فى جميع هؤلاء المشردين على الفكرة الصهيونية ، وتوجيه السياسة الاستعمارية الى تحقيق حلمهم الجميل وهو اقامة اسرائيل ٠

وكان ذلك حين كان العرب غير العرب والمسلمون غير المسلمين ٠

(مواهب ٠ وأوهام)

ومن الأوهام الشائعة أن اليهود يمتازون عن غيرهم بمواهب عقلية خاصة ، وأن كثيرا من المخترعات الحديثة يقترن بأسماء علماء من اليهود ، كأنما صاغ الله أدمغة هؤلاء من نور ٠ وأدمغة غيرهم من ظلام ٠

وقد شاعت هذه الفكرة الخاطئة أو أريد لها أن تشيع وتذيع لتخدم الخطة الصهيونية ، وتمكن لها فى أذهان المخدوعين بها والمأجورين لها من المستعمرين وأذناب المستعمرين ٠

وهذه الفكرة الشائعة تذكرنا بفكرة أخرى شاعت وذاعت فى جو البلاد التى نكبت بالاستعمار الغربى ، فقد قيل كذلك ــ ولا يزال يقال ــ ان العقل الآرى يمتاز عن العقل السامى ، بخصائص العمق فى البحث ٠ والاستقصاء والنفوذ الى ما وراء القشور من اللباب ، وأن العقل السامى سطحى البحث ٠ ضحل القرار ٠ يقف عند ظواهر الأشياء ولا يتجاوزها الى أعماقها ودقائقها وحقائقها ٠

وهذه النظرية ـ ان صحت ـ تهدم ما يقال عن مواهب اليهود لأنهم ساميون ـ وان صح أن عقلية اليهود كما يقال ـ انهدمت هذه النظرية التى تشيد بالعقلية الآرية ٠

والصحيح ان كلتا الفكرتين مجرد زعم كاذب ووهم خاطىء وان الظروف الاجتماعية والمادية والتوجيه العلمى ٠ والشعور بالحاجة وما الى ذلك من العوامل التى لا تحصى هى التى نساعد على ايقاظ المواهب أو تعمل على اخمادها ٠

وقد عاش اليهود آلاف السنين قبل عصر النهضة الأوربية غارقين فى ظلام الجهل والذل دون أن نرى لهم أثرا أو خطرا ، وعاش الأوربيون كذلك آلاف السنين ذئابا جائعة تحترف الصيد أو السطو دون أن نرى لهم أثرا أو خطرا ٠

انها أوهام تعرض فى صور الحقائق العلمية لتؤدى وظيفتها فى خدمة الاستعمار والصهيونية ٠

(عجل بنى اسرائيل)

قيل كلام كثير حول حقيقة العجل الذى عبده بنو اسرائيل فى أثناء غياب موسى عليه السلام ٠

فمن قائل : انه كان تمثالا أجوف من ذهب صاغة السامرى من الحلى ، وصنعه بحيث اذا استدبر الريح دخلت جوفه وخرجت من فمه بصوت جهير يشبه خوار البقر ٠

ومن قائل : ان هذا الرجل المحتال خدع بنى اسرائيل وأخذ منهم الحلى ، ثم رأى عجلا على هيئة العجول التى رأوها تعبد ، فاشتراه وقدمه لهم على أنه اله ، فقال « هذا الهكم واله موسى » ٠

ومن قائل : غير هذين الرأيين ، ولا يتسع المقام لعرض كل ما قيل٠

ولكن المتفق عليه فى الكتب السماوية وغيرها أنهم عبدوا عجلا أيا كان هذا العجل ، وأن السامرى صرفهم عن عبادة الله ٠ وفتنهم بعبادة صنم أبكم

لا يسمع ولا يفهم ، وأنهم لم يأبهوا لهارون وهو يصيح فيهم « يا قوم انما فتنتم به وان ربكم الرحمن فاتبعونى وأطيعوا أمرى » بل كان ردهم عليه أن قالوا : « لن نبرح عليه عاكفين حتى يرجع الينا موسى » .

هذا مع أن هارون أخا موسى نبى ورســـول من الله مع موسى ونائب وخليفة لموسى ، ولكنهم بنو اسرائيل دائما . مع الفاسد المفسد ولو كان « السـامرى » وضد الصالح المصلح ولو كان هارون .

ويظهر أن أكثرهم ارتكسوا فى حمأة هذه الوثنية من جديد ، وأنهم لم يجدو معارضة قوية من غير هارون ، فان ذلك يفهم من اعتذار هارون لموسى . وقوله فى ذلك « انى خشيت أن تقول فرقت بين بنى اسرائيل ولم ترقب قولى » فقد كان هذا رده على أخيه حـــين قال له : « يا هارون ما منعك اذ رأيتهم ضلوا ألا تتبعن أفعصيت أمرى » ؟

شريعة التوراة ..

ذهب موسى الى لقاء الله ليتلقى منه الكتاب الذى وعد به قومه .

واتجه الى الجبل ليمكث فيه ثلاثين ليلة كما أمره الله .

ويذكر المفسرون أنه قضى هذه المدة صائما ، ثم وجد رائحـــة فمه قد تغيرت . فاستاك أولاك فى فمه شيئا من النبـــات ، فقال له ربه لم أفطرت ؟ فقال : كرهت ان أكلمك الا وفمى طيب الرائحة فقال له الله : أو ما علمت يا موسى أن ريح فم الصائم عندى أطيب من ريح المســك ارجع . فصم عشرة أيام . ثم ائتنى . ففعل ، وأتم مدة الصيام أربعين يوما .

ذلك ما يذكره المفسرون فى شرح قوله تعالى « وواعدنا موسى ثلاثين ليلة وأتممناها بعشر فتم ميقات ربه أربعين ليلة » .

وبعد انتهاء هذه المدة سمع موسى ربه يكلمه فقال : « رب أرنى انظر اليك قال لن ترانى ولكن انظر الى الجبل فان استقر مكانه فسوف ترانى » .

ثم تجلى جلال الله للجبل فغاص فى الأرض ، وارتطمت أجزاؤه بعضها

ببعض ، فتفتت ، وسمع لذلك صوت رهيب لم يتحمله موسى فوقع مغشيا عليه ، ثم أفاق وأدار عينيه فيما حواليه ورفعهما وقال يناجى الله ، وينزهه عن أن تدركه الأبصار « سبحانك تبت اليك وأنا أول المؤمنين » .

وسمع الله توبته وتسبيحه . فقال « يا موسى انى اصطفيتك علـى الناس برسالاتى وبكلامى فخذ ما آتيتك وكن من الشاكرين » .

وكانت الرسالات هى الألواح أو أسفار التوراة . وفيها كما جاء فى القرآن حيث يقول الله تعالى « وكتبنا له فى الألواح من كل شيء موعظة وتفصيلا لكل شيء » .

ولكنه ما كاد يعود بها حتى وجد قومه قد عادوا الى ضلالهم القديم ، فألقاها على الأرض ، وأخذ بشعر رأس أخيه يجره اليه « قال يا هارون ما منعك اذ رأيتهم ضلوا ألا تتبعن » .

فى ثورة الغضب ..

ثار موسى ثورة عنيفة عندما رأى كل ما بناه قد انهار فى غيبته عن قومه ...

لقد عادوا الى عبادة العجل ، وهم لم يتحرروا من ظلم فرعون الا عن طريق الايمان بالله ، ولم ينجوا من الهلاك الا برعاية الله ولم يجدوا الماء ينبثق من الصخر فى القفر الا برحمة الله ، ولم يجدوا الطعام وظل الغمام الا من الله .. فكيف ينسون كل ذلك وينسون من أنجاهم من المهالك ؟

وأسرع الى أخيه فجذبه من شعر لحيته ورأسه وأخذ يجره اليه ويقول له « يا هارون ما منعك اذ رأيتهم ضلوا ألا تتبعن أفعصيت أمرى ؟

وأخذ هارون يعتذر اليه . ويقول ما حكاه القرآن عنه « يابن أم لاتأخذ بلحيتى ولا برأسى انى خشيت أن تقول فرقت بين بنى اسرائيل ولم ترقب قولى » « يابن أم ان القوم استضعفونى وكادوا يقتلوننى . فلا تشمت بى الأعداء ولا تجعلنى مع القوم الظالمين » .

وترك موسى أخاه هارون ٠ وتوجه الى قومه يخاطبهم ويعاتبهم ، « يا قوم ٠ ألم يعدكم ربكم وعدا حسنا ٠ أفطال عليكم العهد أم أردتم أن يحل عليكم غضب من ربكم فأخلفتم موعدى » ؟ ٠

وأجابوه بما حكاه القرآن عنهم « ما أخلفنا موعدك بملكنا ولكنا حملنا أوزارا من زينة القوم فقذفناها فكذلك ألقى السامرى » ٠

فتوجه الى السامر وقال « فما خطبك يا سامرى ٠٠ ؟ » قال بصرت بما لم يبصروا به ٠ فقبضت قبضة من أثر الرسول فنبذتها وكذلك سولت لى نفسى » ٠

ثم كانت توبة بنى اسرائيل أن يقتلوا أنفسهم بأنفسهم ، وعقاب ، السامرى أن يعيش شريدا طريدا لا يمسه أحد ٠ ولا يمس أحدا ، كما يفهم من قوله « اذهب فان لك فى الحياة أن تقول لا مساس وان لك موعدا لن تخلفه ٠ وانظر الى الهك الذى ظلت عليه عاكفا لنحرقنه ثم لننسفنه فى اليم نسفا » ٠

(محنة جديدة ٠٠)

كانت جريمة منكرة أن يعود بنو اسرائيل الى الوثنية مرة أخرى وبخاصة بعد أن من الله عليهم بالمن والسلوى ، وفجر لهم من الحجر اثنتى عشرة عينا ، وظلل عليهم الغمام ، وأراهم من آياته على يد موسى ما يثبتهم على الايمان ، ويقيمهم على الحق ٠

وكان عقاب هذه الجريمة محنة أخرى أشد وبالا ونكالا من المحن التى تعرضوا لها ٠

لقد كان فرعون يقتل أبناءهم ٠ ويستحيى نساءهم ، وها هم أولاء يقتلون أنفسهم بأنفسهم ، ويخربون بيوتهم بأيديهم ٠

وكان عمل فرعون معهم بلاء من الله كما يفهم من قوله تعالى « واذ نجيناكم من آل فرعون يسومونكم سوء العذاب يذبحون أبناءكم ويستحيون نساءكم وفى ذلكم بلاء من ربك عظيم » ثم كان عمل موسى أن يسلط سيوف بعضهم على رقاب بعض بأمر من الله ويقول لهم « يا قوم انكم ظلمتم أنفسكم

باتخاذكم العجل فتوبوا الى بارئكم فاقتلوا أنفسكم ذلكم خير لكم عند بارئكم » .

وتذكر التوراة أن موسى أمرهم أن يضعوا سيوفهم على أفخاذهم وأن يمروا بالمحلة التى كانوا يقيمون فيها من باب الى باب ، ويقتل كل رجل أخاه ، وكل صاحب صاحبه . وكل قريب قريبه . ففعلوا وقتل فى ذلك اليوم ثلاثة آلاف رجل .

وهكذا نرى أن ما حل ببنى اسرائيل فى ظل فرعون كان من جنس ما حل بهم فى ظل موسى .

فقد كان ذلك بلاء من الله ، وكان هـذا بأمر من الله وكلاهما محنة تنزل بالعصاة ، وتذكرنا بقول الله جل شأنه « وهو القادر على أن يبعث عليكم عذابا من فوقكم أو من تحت أرجلكم او يلبسكم شيعا ويذيق بعضكم بأس بعض » .

الى التوراة ..

عاد موسى الى الأسفار يجمعها بعد أن ألقاها على الأرض فى ثورة الغضب وحطم بعض الألواح كما يذكر بعض الرواة وتصرح التوراة .

وهذه الأسفار هى الألواح التى تلقاها موسى عن ربه ، وتلقى فيها شريعته الى بنى اسرائيل وقد أشار القرآن الى ما جاء فيها اشارة مجملة فقال « وكتبنا له فى الألواح من كل شىء موعظة وتفصيلا لكل شىء » ثم ذكر أن الله أمر موسى أن يأخذها بقوة . وقال له « وأمر قومك يأخذوا بأحسنها » بمعنى أن يفعلوا ما يكون أدنى الى الخير وأدعى الى رضاء الله ، فاذا رأوا فيها خصلتين أو طريقتين تقربانهم الى رضوان ربهم ، وكانت احداهما أعظم ثوابا ، وأحسن مآبا ، وأكثر خيرا أخذوا أنفسهم بها ، وتركوا الحسن الى الأحسن . والفاضل الى الأفضل .

وقد اختلف المفسرون فى عدد هذه الألواح ، فمن قائل انها عشرة ، ومن قال انها اثنان ، ومن قائل غير هذين فيما بين العشرة والاثنين .

واختلفوا كذلك في حقيقتها اكانت من خشب ام من حجر أم من زبرجد . أم من ياقوت ، ولا شيء يعنينا من هذا الخلاف ، ولا ثمرة له ولا فائدة فيه .

انما يعنينا أن نتابع سيرة هؤلاء مع موسى . وسيرة موسى معهم لنرى كيف كان مسلكهم في جميع أطوار حياتهم يتسم بطابع الصغار والذل والغدر والمكر والكفر بما يستحق الشكر .

وقد انتهت ثورة موسى بما رأى من دماء قومه ، ثم اتجـــه الى الله يناجيه . ويدعو لنفسه ولأخيه « رب اغفرلى ولأخى وادخلنا فى رحمتك وأنت أرحم الراحمين » .

ثم سمع نداء الله يملأ قلبه وأذنيه بغير ألفاظ وحروف « ان الذين اتخذوا العجل سينالهم غضب من ربهم وذلة فى الحياة الدنيا وكذلك نجزى المفترين » .

ثم جمع موسى التوارة واختار من قومه سبعين رجلا للقاء الله .

(توبة .. ثم كفر)

كان السبعون رجلا الذين اختارهم موسى ليذهبوا معه الى الجبل حيث اعتاد أن يناجى الله . من خيرة بنى اسرائيل كما يفهم من قوله تعالى ، « واختار موسى قومه سبعين رجلا لميقاتنا » فان التعبير بكلمة « واختار » يشعر بأنهم خير بنى اسرائيل فى نظره ونعديره .

وفى هذا التعبير ما يكاد يومىء بأن هؤلاء هم دون غيرهم قومه ، كان من عداهم — وهم كثير — لا يعدون قوما له بسبب ما انحدروا اليه من اثم وظلم ، وغدر وكفر ، وكان قوم موسى لا يتجاوزون هذا العدد القليـــل الضئيل .

ومع هذا كان هؤلاء كغيرهم من عامة بنى اسرائيل .. !

لقد ذهبوا مع موسى الى جبل الطور أو « حوريب » ليقدموا معه التوبة الى الله . والندم على ما اقترفه قومهم من الاثم بعبادة العجل .

ثم سمعوا كلام الله لموسى دون أن يروا جسما أو يعرفوا حقيقة الكلام الذى يسمعونه ، فعادوا الى التمرد والكفر والعصيان وقالوا « يا موسى لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة » .

ولكنهم لم يكادوا يجاهرون باعلان هذا التهديد بالعصيان حتى اخذتهم صاعقة من السماء فوقعوا على الأرض ، ينظر بعضهم الى بعض ، وغشيهم من الاغماء ما غشيهم ، ولجأ موسى الى الله يناجيه بهذا الذى يحكيه القرآن « رب لو شئت أهلكتهم من قبل واياى . أتهلكنا بما فعل السفهاء منا ، ان هى الا فتنتك تضل بها من تشاء وتهدى من تشاء ، أنت ولينا فاغفر لنا وارحمنا وأنت خير الغافرين » .

واستجاب الله دعاء موسى ونداءه فقال « عذابى أصيب به من أشاء . ورحمتى وسعت كل شىء » .

ثم بعثهم . وأعاد الحياة اليهم . لعلهم يشكرون . ولا ندرى أكان منهم بعد هذا شكر أم كفر .

محمد فى التوراة ..

ويمضى القرآن فى عرض هذا الجانب من قصة موسى أمام الله ومع السبعين رجلا الذين اختارهم من قومه ، فيذكر أن الله قال لهم بعد العفو عنهم والمغفرة لهم ، وبعد قوله « عذابى أصيب به من أشاء ورحمتى وسعت كل شىء، فسأكتبها للذين يتقون ويؤتون الزكاة والذين هم بآياتنا يؤمنون، الذين يتبعون الرسول النبى الامى الذى يجدونه مكتوبا عندهم فى التوراة والانجيل يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث ويضع عنهم اصرهم والأغلال التى كانت عليهم فالذين آمنوا به وعزروه ونصروه واتبعوا النور الذى أنزل معه أولئك هم المفلحون » .

ومعنى هذا أن موسى تلقى البشارة بخاتم الأنبياء والمرسلين محمد صلى الله عليه وسلم .

وأن هذا النبى يجده اليهود والنصارى مكتوبا عندهم فى التوراة والانجيل ..

وأن رسالته تقوم على الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر واباحة الطيبات لهم ، وتحريم الخبائث عليهم ، وتحريرهم من الأغلال والأثقال · التى يجدون فى احتمالها العناء والاذلال ··

وأن الذين سيتبعونه من هؤلاء الذين يجدونه مكتوبا عندهم ومن غير هؤلاء · فيؤمنون به ، ويؤازرونه ، ويناصرونه ، ويتبعون القرآن الذى أنزل عليه ، سيكونون دون غيرهم أهل الفوز والفلاح ··

كان هذا حقيقة محفورة في الاسفار · مسطورة فى التوراة ·· بل كان نشيدا يترنم به بنو اسرائيل بعد أن أغار عليهم طيطس الرومانى وخرب بلادهم ، وهدم الهيكل الذى كانوا يفاخرون به وبما فيه من ذهب وفضة ·

ثم كانت أغلال الذل والآلام الثقال تنسج حولهم ليلا دامسا من الهموم والأحزان · فانتقلوا من فلسطين · وأقاموا فى جهات من الحجاز مثل تيماء · ووادى القرى · وفدك · وخيبر · وحول يثرب · لا غازين فاتحين ولكن لاجئين هاربين يلتمسون النور الذى وعدوا به · والفجر الذى طال بهم انتظاره « فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به فلعنة الله على الكافرين » .

كيف رفضوا التوراة ··

لا يعلم الا الله مدى الفاجعة المفاجئة التى أحسها موسى عليه السلام عندما رأى السبعين رجلا الذين اختارهم من قومه على ظن أنهم خير بنى اسرائيل قد تمردوا عليه ، وقالوا : « لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة » ·

وانما نعلم أنه استبان له أن هؤلاء مثل غيرهم سفهاء ، بدليل قوله فى مناجاة ربه « رب لو شئت أهلكتهم من قبل واياى · أتهلكنا بما فعل السفهاء منا » ·

وكيف لا يكون هؤلاء سفهاء ، وقد جاءوا مع نبيهم تائبين عن أنفسهم وعن قومهم المذنبين ، فاذا بهم يضيفون الى سلسلة المآثم والجرائم اثما آخر وجريمة أخرى ، ويقولون فى قحة واستهتار ، « لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة » ·

وقد ذكر بعض المفسرين في تفســــير قول الله حكاية عن موسى : « رب لو شئت أهلكتهم من قبل واياى » انه تمنى لو كان هلاكه وهلاك قومه قد وقع فى محنة من المحن الكثيرة التى نجاهم الله منها في الماضى فقد ضاق بهم وبكثرة أخطائهم وخطاياهم حتى ضاق بحياته وحياتهم ٠

ولكننى مع غير هؤلاء أرى أن هذا الكلام أراد به موسى عليه السلام الاعتذار عن قومه ٠ والاستغفار لهم ، ولم اعتمد فى هذا على ما عرف عن عامة بني اسرائيل من حرص على الحياة كما يقول الله « ولتجدنهم أحرص الناس على حياة » بل على قول موسى فيما يحكيه القرآن عنه « أتهلكنا بما فعل السفهاء منا » ، فانه يفهم منه أنه عليه السلام كان يلتمس من الله ألا يأخذ الأبرياء بظلم السفهاء ٠٠

وقد عاد موسى مع هؤلاء الذين خاب فيهم ظنه ليسوس قومه بشريعة التوراة ، وفيها كما يقول القرآن « هدى ونور » ولكنهم مع هذا رفضوها وعارضوه فيها ، وآثروا عليها ما كانوا فيه من ضلال وظلام ، وتبين أنهم فى حاجة الى نازلة أخرى تطل عليهم من السمــــاء ، أو تخرج اليهم من الأرض ، أو تحيط بهم من الأرض والسماء ٠

كيف قبلوا التوراة ٠٠

وكان ما شاء الله أن يكون ، فانه سبحانه « انما أمره اذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون » ٠

كان أن نتق الجبل فخلعه ورفعه فوقهم ، حتى صار كانه سقيفة تظللهم ، أو ظلة منشورة فوق رءوسهم ، فدارت أعينهم كالذى يغشى عليه من الموت ، وتملكهم الهلع والفزع ، وأيقنوا أن الجبل سيقع عليهـــم ٠ ويطحن عظامهم وجماجمهم ٠

وهنا ٠٠ قبلوا أن يأخذوا أنفســـهم بشريعة التوراة بعد أن كانوا يرفضونها ويعارضون موسى فيها ، ثم كان منهم بعد ذلك ما كان منهـم قبل ذلك ٠٠ !

امتدت أيديهم أو أيدى أحبارهم الى التوراة فحرفوها وزيفوها والى الأنبياء فقتلوهم وعذبوهم ، وكانوا كما يقول الله فيهم ، « وترى كثيرا

منهم يسارعون فى الاثم والعدوان وأكلهم السحت لبئس ماكانوا يصنعون» وكما يقول في مواقفهم مع أنبيائهم : « كلما جاءهم رسول بما لا تهوى أنفسهم فريقا كذبوا وفريقا يقتلون » وكما يقول فى علمائهم وأحبارهم « فويل للذين يكتبون الكتاب بأيديهم ثم يقولون هذا من عند الله ليشتروا به ثمنا قليلا فويل لهم مما كتبت أيديهم وويل لهم مما يكسبون » ٠

هكذا كان بنو اسرائيل منذ كانوا حتى اليوم ٠

وقد ذكر القرآن هذه الحادثة وذكر بها حيت يقول الله فيه : « واذ نتقنا الجبــل فوقهم كأنه ظلة وظنوا أنه واقع بهم ٠ خذوا ما آتينــاكم بقوة واذكروا ما فيه لعلكم تتقون » ٠

والتعبير بقوله « لعلكم » يشعر ببعدهم عن التقوى ٠ حتى مع العمل بما فى التوراة قبل أن تمتد اليها يد التحريف والتزييف ٠

أمل موسى

كان أمل موسى الذى منى به قومه ٠ وأخـذ يسعى الى تحقيقه أن يجدهم أمة لها كيان ٠ ونظام ٠ ومكان ٠٠

ويظهر أن فرعون كان يلمح ذلك ويخشى تحققه فى أرض مصر كما يشعر بذلك قوله « ان هذا لساحر عليم ، يريد أن يخرجكم من أرضكم فماذا تأمرون » وقوله للذين آمنوا برب هارون وموسى « ان هذا لمــكر مكرتموه فى المدينة لتخرجوا منهــا أهلها فسوف تعلمون » وقول موسى لقومه « استعينوا بالله واصبروا ان الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين » وقول فرعون لموسى وأخيه : « أجئتنا لتلفتنا عما وجدنا عليه آباءنا وتكون لكما الكبرياء فى الأرض » ٠

ولكن هذا الأمل لم يكن وليد حلم فى نوم ، بل كان عقيـــدة يؤمن بها ويسعى الى تحقيقهــا ، فاذا تبخر فى مصر فلا بأس من أن يطل عليه فى غيرها ٠٠

وكان أمامه وأمام قومه فلسطين ٠٠

صحيح أنها لم تكن لهم دار قرار ،فان اسرائيل بن اسحق ،واسحق

ابن ابراهيم · وابراهيم كان مهاجرا من العراق ، وبنو اسرائيل لم يقيموا فى فلسطين مدة طويلة ، وانما هاجروا منها الى مصر · ليعيشوا فيهـــا مع أخيهم يوسف · فى ظل العمالقة أو الهكسوس كما قدمنا ·

وقد خرجوا من مصر فرارا من آل فرعون ، وأصـــبح عددهم كثيرا يمكن أن يقوم عليه مجتمع له كيان · ونظام ومكان ·

وقد جاءت التوراة بالنظام فأين يجدون المكان ·· ؟

ان أقرب مكان تطمح اليه انظارهم بعد مصر هو فلسطين ولكن كيف يدخلونها وهم مع كثرتهم جبناء « تحسبهم جميعا وقلوبهم شتى » ·

الى الأرض المقدسة

كان بنو اسرائيل على كثرتهم ينتمون الى اثنتى عشرة قبيلة ، وكانت كل قبيلة تنتمى الى واحد من أبناء يعقوب عليه السلام ·

وكان موسى يطمع فى اقامة مجتمع من هؤلاء · أو من هؤلاء وغيرهم يحكمه نبى أو ملك منهم على أساس العمل بشريعة التوراة ·

ولم يكن لبنى اسرائيل وطن يتشوقون اليه ، أو يشـــعرون نحوه بحنين يجمعهم عليه ، بل كان كل ما بقى فى أنفسهم عن فلسطين بقايا ذكريات لاتعدو أيامهم مع أخيهم يوسف ، ومولد جدهم اسحق · ومن وراء اسحق يعقوب الملقب باسرائيل ·

بل ان يعقوب أنفق الجانب الأخير من حياته فى مصر ومات فيها ، بعد أن رحل اليها مع أبنائه الأحد عشر ، فلم تكن مدة اقامته واقامة أبيه اسحق فى الأرض المقدسة بحيث تسوغ لأبنائه أن يتطلعوا الى امتلاكهـــا والحكم فيها ، ولم يكن لأبيهم الأعلى أو آبائهم أو أى فرد فيهم أى حق فى فلسطين · الا أن يكون حق فرد أى فرد أو افراد فى مجتمع يحكمه نظام عام ·

لكن الأرض كما قال موسى لقومه فى مصر « لله يورثها من يشاء من عباده » وهى كمــــا وجدها فى التوراة · وكما وجدها داود من بعده فى الزبور · وكما وجدها المسلمون من بعد كل هؤلاء فى القرآن للصالحين من عباد الله · مصداق قوله تعالى «ولقد كتبنا فى الزبور من بعد الذكر أن

الارض يرثها عبادى الصالحون » وقوله سبحانه : « وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم فى الارض كما استخلف الذين من قبلهم » ٠

لهذا فهم موسى عليه السلام أن قومه أصبحوا صالحين ، وأن صلاحهم يؤهلهم لامتلاك فلسطين ، فنادى فيهم : « يا قوم ادخلوا الأرض المقدسة التى كتب الله لكم ولا ترتدوا على أدباركم فتنقلبوا خاسرين » ٠

ولكنه كان يصيح فى واد ٠ وينفخ فى رماد ٠

لقد كان هذا الجيل الذليل من بنى اسرائيل لا يصلح لقتال أو استقلال ٠

(الجيل الذليل)

نعم كان موسى من قومه فى جيل ذليل ٠ لا يصلح لقتال أو استقلال فقد بعث من كل قبيلة واحدا الى فلسطين ٠ ليتحسسوا الأرض ويتعرفوا حال أهلها ، فذهبوا ـ وكانوا اثنى عشر رجلا ـ ثم عادوا ليخبروا قومهم بما راعهم وروعهم من جسامة أجسام أهل هذه البلاد ٠ وشدة بأسهم وخبرتهم فى الحرب ، وقدرتهم على الكر والفر ٠ والنزال والقتال ٠

ولم يكد بنو اسرائيل يسمعون ما قصه عليهم هؤلاء الرواد حتى انخلعت قلوبهم ، وتمثل لهم شبح الموت فى كل خطوة تقربهم من فلسطين وقالوا : « يا موسى ان فيها قوما جبارين ، وانا لن ندخلها حتى يخرجوا منها ٠ فان يخرجوا منها فانا داخلون » ٠

وقام رجلان من هؤلاء الرواد الجواسيس ٠ أو من الذين أنعم الله عليهم بالايمان من غير بنى اسرائيل ينصحان موسى وقومه بأن يدخلوا على أعدائهم باب مدينتهم « أريحا » فيباغتوهم فيها ، ويحجزوهم داخلها ، وبذلك لا يستطيعون الفر والكر والتصاول كما يحدث فى الصحراء أو الأرض الفضاء ، ولكن هذه النصيحة لم تجد أذنا واعية ٠ أو قلبا مطيعا ٠

فقد طارت نفوسهم خوفا من بطش أعدائهم بهم٠وقالوا : « يا موسى انا لن ندخلها أبدا ماداموا فيها فاذهب أنت وربك فقاتلا انا ها هنا قاعدون » ٠

وشعر موسى عليه السلام باليأس الحزين القـــاتم • فاتجه الى الله يناجيه ويناديه « رب انى لا أملك الا نفسى وأخى فافرق بيننا وبين القوم الفاسقين » •

ثم سمع من جانب الله الرد الحاسم : « قال فانها محرمة عليهم أربعين سنة يتيهون فى الأرض فلا تأس على القوم الفاسقين » •

وكان الفاسقون هم هؤلاء الذين ابتلاهم الله بالنقم فلم يزدجروا ، وبالنعم فلم يعتبروا ••

(التائهون فى الأرض ••)

وكان على بنى اسرائيل أن يتيهوا فى الأرض أربعين سنة قبـــل أن يدخلوا الأرض المقدسة ••

ويذكر ابن خلدون فى مقدمته « أنهم تاهوا فى قفر من الأرض ما بين الشام ومصر أربعين سنة ، لم يأووا فيها الى العمران ، ولا نزلوا مصر ، ولا خالطوا بشرا » ثم يذكر أن الحكمة فى ذلك هى « افناء أبنـــــاء الجيل الذين خرجوا من قبضة الذل والقهر والقوة • وانشـــــاء جيل آخر عزيز لا يعرف الأحكام والقهر ، ولا يسام الذل والهوان » •

كان لابد اذن من جيل آخر غير هذا الجيل الذليل من بنى اسرائيل •

وكان لابد أن ينشـــأ هذا الجيل في جو حر ، حتى ينشـــأ على حب الحرية ، وفى مهمه قفر حتى يعتاد الخشونة والشظف والصبر على العناء والمشقات •

وكان لابد مع هذا أو قبل هذا أن يتمكن فى قلوبهم الايمان بالله • والاعتصام بحبله • والاعتزاز بدينه فى هذا الجو الصحو الذى كتب عليهم أن يعيشوا فيه ••

ومن الطريف هنـــا أن نذكر ما ذكره فضـــيلة المرحوم الشـــيخ عبد الوهاب النجار فى حضانة العلم وحضانة الأخلاق ، فقد قال فى كتابه قصص الأنبياء : « والعلماء يقولون ان حضانة العلم خمس عشرة سنة ، فاذا ابتدأت أمة تتعلم فانها تجنى ثمرة العلم بعد خمس عشرة سنة ، أما

حضانة الأخلاق فمدتها أربعون سنة ، فاذا أخذت الأمة تستمسك بالأخلاق فانها لا تجنى الثمرة الا بعد أربعين سنة » .

لذلك أراد الله أن يبقى بنى اسرائيل في البرية أربعين سنة حتى يفنى الجيل الذى نشأ فى الذل والاستعباد ، وينشأ جيل ألف الحرية ، ولم تذله العبودية » .

وعندى أن ابن خلدون والمرحوم الشيخ النجار نسيا مع ذلك اعتبارات وراثية عرفت عن بنى اسرائيل . فى كل زمن وكل جيل .

(وفاة موسى وهارون)

وفى هذه الفترة الطويلة التى أمضاها بنو اسرائيل تائهون فى الأرض توفى هارون وموسى ..

وكانت وفاة هارون قبل موسى . فلم يشأ بنو اسرائيل أن تمر دون ضجة وضوضاء ..

فقد اتهموا أخاه بقتله ، وشغبوا عليه ، ولم يذكروا أنه نبى ورسول من الله ، وأنه كان على يديه ما رأوا من آيات بينات ، وأنه كان الرحمة المرسلة من الله اليهم ..

لم يذكروا ذلك . ولا شيئا من ذلك ، واتهموه بالاجرام . وقتل نفس زكية حرم الله قتلها ..

ويذكر المفسرون أنهم لم يرتدعوا عن هذا الغى والضلال حتى أراهم الله هارون على سرير بين السماء والأرض ، فلم يروا فيه أثرا للقتل ..

وكانت وفاة هارون فى جبل يسمى « هور » توجه اليه موسى وأخوه بأمر من الله . فدفنه موسى ، وعاد الى قومه حزينا عليه ..

أما وفاة موسى فكانت فى جبل يسمى « نبو » أمره الله أن يذهب اليه ليقف عليه ، ويمد بصره بعيدا ليرى الأرض المقدسة التى كان يمنى نفسه وقومه بدخولها . والاستقرار فيها ..

ولقى موسى أجله وعيناه تمتدان الى بعيد . لترى من خلال التلال

الجائمة والجبال القائمة الارض التى طاف حولها خياله وتعلقت بهـــا آماله ٠

واستراح موسى عليه السلام من عناء قومه ٠ ومن أحداث قومه ٠٠ ومن شر قومه ٠

استراح من بنى اسرائيل لينعم فى جوار الله مع الذين انعم عليهم « غير المغضوب عليهم ولا الضالين » ٠

سلام على موسى وهارون ٠٠

انتهت حياة هارون بما تنتهى اليه حياة كل حى ، واطمأن فى مرقده ومثواه الأخير فى جبل هور ٠

ثم لحق به أخوه موسى فوافاه الاجل فى جبل «نبو» وهو يستشرف الأرض المقدسة ، ويتشوف اليها ، ويلقى عليها نظرات تفيض حسرات ٠٠

وبقى بنو اسرائيل حيث تركهم موسى واخوه تائهين فى قفار الأرض يضربون فى صحرائها ، ويتقلبون فى أنحائها ، وينتظرون الموعد الذى كتب الله لهم أن يدخلوا فيه أرض الميعاد ٠٠

وقبل أن نمضى مع هؤلاء فى قصة حياتهم ـ وهى تمثل قصة الشر فى العالم منذ وجدوا بعد ابليس وجنوده حتى الآن ـ يحسن بنا أن نذكر لموسى وأخيه ـ عليهما السلام ـ جهادهما فى اصلاح قومهما بمـا ينبغى لهما من تعظيم ، وما ينبغى لهما من تكريم ٠

فقد لقيا من بنى اسرائيل ما تنوء بحمله الجبال ، فلم يضـــعف ايمانهما برسالتهما ، ولم يفقد الأمل فى تحقيق غايتهما ٠ حتى لقيا الله مطمئنين الى رضاه ٠٠

وأى تكريم أمجد وأخلد لهمـا من تكريم القرآن حيث يقول فيهما « واذكر فى الكتاب موسى انه كان مخلصا وكان رسولا نبيا ، وناديناه من جانب الطور الأيمن وقربناه نجيا ، ووهبنا له من رحمتنا أخاه هارون نبيا » وحيث يقول : « ولقد مننا على موسى وهارون ونجيناهما وقومهما من الكرب العظيم » ثم يقول « وهديناهما الصراط المستقيم ، وتركنا عليهما فى الآخرين ، ســـلام على موسى وهـــارون ، انا كذلك نجزى المحسنين » ٠

وهكذا يرفع القرآن هذين الرسولين من بنى اسرائيل الى الدرجة التى يستحقانها ثم يطلب الى المؤمنين به أن يرتفعوا الى مستوى دينهم القديم ، فلا يتأثروا بما يعرفون عن بنى اسرائيل فى حكمهم على موسى عليه السلام فيقول « يأيها الذين آمنوا لا تكونوا كالذين آذوا موسى فبرأه الله مما قالوا وكان عند الله وجيها » .

على الشاطىء ..

صديقى القارىء ...

كان على أن أقف عند هذا الحد الذى انتهينا اليه من حياة بنى اسرائيل ثم أعود الى ما وقفنا عنده من آيات لنستأنف السير فى عرض معانى القرآن على النحو الذى توخيناه كلمة ، كلمة ، فآية ، آية فسورة ، سورة .

ولكن كثيرا من أصدقائى وقرائى الذين يجتمعون بعقولهم وقلوبهم معى ومعك فى ظل هذا العنوان . رأوا أن أمضى فى متابعة حياة بنى اسرائيل بعد موسى فى اجمال عام ، ثم أعود الى تفصيل شرح الآيات التى أجملت حياتهم فى بضع عشرة آية ، وأمضى فى التفسير على النحو الذى توخيناه كلمة كلمة .. ثم آية آية ، ثم سورة سورة .

وأبادر فأصارحك بأن التفسير بالمعنى الذى يفهم من كلمة تفسير مطلب صعب المنال . اذا لم يكن من المحال ، فان الآية الواحدة من القرآن تكشف للناظر اليها . والمتأمل فيها ما يكشف المجهر من ملايين الدقائق والحقائق التى تجتمع فى ذرة من جسم . أو نقطة من دم أو قطرة من ماء .

بل ان الآية الواحدة منه لو قدر لأنسان أن يكشف جانبا من معانيها أو يستشف بعض الأسرار فيها ، لهاله أن يجد نفسه على شاطىء محيط واسع . يطير به خياله بين جمال آفاقه ، وجلال أعماقه ويسبح به فكره فيما بينها من ماء وهواء وكائنات لا تحصى ولا تستقصى .

فكيف يمكن لمعبر أو مفسر أو مصور أن ينقل ذلك أو شيئا من ذلك فى كتاب أو ألف كتاب ، ثم يفهم أو يتوهم أنه ترجم الى اللغة العربية أو الى غيرها من اللغات الحية معانى القرآن .

ان مجرد اختلاف القراء فى لهجات القرآن حمل عثمان بن عفان رضى الله عنه على أن يحرق كل المصاحف ويكتب المصحف الامام باللغة واللهجات التى كان يقرأ بها على عهد رسول الله وبسمع منه ، ولم يحل ذلك دون أن تشرق شمس الاسلام فى كل بلد يحل به مسلم ، لأنه كان بضوئه المتألق ٠ وحقه الثابت ورحمته العامة يعيش فى نفوس هؤلاء ويضىء فى رءوسهم فكانوا به أسوة حسنة وقدوة طيبة ٠٠ فليذكر القراء ذلك وليذكروا أننى أكتب من معانى القرآن لا معانى القرآن ٠

قصص فى قصة ٠٠

انتهت حياة موسى على النحو الذى قدمناه ٠٠

ولم نعرض لما اتصل بحياته من قصص فردية أخرى ، لأن ذلك لا يتصل بغرضنا من هذا العرض السريع ٠

فان غرضنا أن نكشف للقراء عن مسلك هؤلاء من حيث هم جماعة لا من حيث هم أفراد ٠

ولهذا أرجأنا الحديث عن قصة البقرة التى أمرهم بذبحها وقصة قارون معه ٠ وقصة اتهامه بعيب جنسى ٠ و ٠ و الى آخر ما هنالك من قصص كثيرة فاضت بها كتب السيرة ٠

ولو ذكرنا ما ذكرته التوراة عما كان من هؤلاء وآبائهم ، وما نسبته الى بعض الأنبياء منهم من حوادث فردية لطال بنا الكلام ٠ وخرجنا عن الصراط المستقيم الذى توخيناه وسألنا الله أن يهدينا اليه ٠٠

ولكننا نكتب فى ظل القرآن ، ونسترشد به فى كل خطوة نخطوها ولهذا لم نعرض بكثير أو قليل لما قيل عن قصة يعقوب ــ وهو أبو هؤلاء مع أخيه عيسى وقصة أبناء يعقوب بعضهم مع بعض ومع يوسف ، ولا زلنا نتوخى القصد فى كل مرحلة من مراحل الحديث عن هؤلاء ٠

فان رأى بعض القراء ما يظنه انحرافا فليبادر بابداء رأيه ، وله علينا أن نفسح له صدرنا ٠ وننشر رأيه بتعليق أو دون تعليق ٠

فان أخشى ما أخشاه أن يفهم البعض أن للظروف السياسية

والاعتبارات القومية تأثيرا كبيرا أو صغيرا فيما يقرءون من معانى القرآن ويعلم الله أننى ما أريد الا الحق ، وله الشكر على ما وفقنى اليه من كشف القناع عن وجوه هؤلاء • بعد أن امتلأت أذهان العوام وأشبـــاه العوام بأوهام كانت يد اليهود تدسها فى تفســير القرآن لغـــاية تخدم خططهم الشيطانية ، وتخفى عن العرب والمسلمين خبيئة خداعهم وأطماعهم ••

فلنمض مع القرآن لنتعرف منه فطرتهم فانه الحق الذى لا يأتيه الباطل وهو كتاب من « يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور » •

بين عهدين ••

وقبل ان نمضى مع بنى اسرائيل فى العهد الجديد الذى صاروا اليه بعد وفاة موسى عليه السلام • نضع أمام الأنظار خلاصة ما عرضناه من ماضيهم فيما يلى :

١ ــ كانوا فى مبدأ أمرهم اثنى عشر رجــلا ، فلم يزعهــم الخوف من الله والوفاء لأبيهم أن يأتمروا بأخيهم يوسف وهو طفل صغير فالقوه فى بئر مظلم ، ثم « جاءوا أباهم عشاء يبكون ، قالوا يا أبانا انا ذهبنا نستبق وتركنا يوسف عند متاعنا فأكله الذئب » •

٢ ــ هاجروا الى مصر مع أبيهم ليعيشوا فى ظل أخيهم يوسف ، ثم عملوا من بعده فى خدمة الغزاة من أعداء البلاد التى أكرمتهم وآوتهم ••

٣ ــ رحل الغزاة عن أرض مصر ، فبقى هؤلاء حتى تفاقم شرهم ، وانكشف أمرهم ، وظهر أنهم جواسيس فى عهد رعمسيس ••

٤ ــ أنجاهم الله من آل فرعون ومن الغرق بقيادة موسى عليه السلام فلم يلبثوا حين وجدوا قوما « يعكفون على اصنام لهم » ان قالوا لموسى : « اجعل لنا الها كما لهم آلهة » •

٥ ــ أمدهم الله فى صحراء سينا بطعام من المن والسلوى فقالوا لنبيهــم « لن نصبر على طعام واحد فادع لنا ربك يخرج لنا مما تنبت الأرض من بقلها وقثائها وفومها وعدسها وبصلها » •

٦ ــ ذهب موسى لتلقى التوراة من الله فعادوا ــ فى غيبته ــ الى عبـــادة العجل من دون الله •

٧ ـ رفضوا قبول التوراة ، ولم يذعنوا لها الا حين رأوا الجبـــل فوقهم « كأنه ظلة وظنوا أنه واقع بهم » ٠

٨ ـ أمرهم موسى بدخول الأرض المقدسة فجبنوا عن ذلك ٠ وعصوا أمره وقالوا «ان فيها قوما جبارين وانا لن ندخلها حتى يخرجوا منها» .

هذه بعض الملامح العـــامة لطبيعة هؤلاء وسنرى أن أمرهـــم بأن يتيهوا فى الأرض أربعين سنة ٠ لم يكن تدريبا بمقدار ما كان عقابا ٠٠

فى سبيل الملك ٠٠

لم يكن موسى عليه السلام حالما أو واهما حين قال لقومه « اذكروا نعمة الله عليكم اذ جعل فيكم أنبياء ٠ وجعلكم ملوكا ٠ وآتاكم ما لم يؤت أحدا من العالمين » ٠

وانما كان ينظر من خلال الغيب الى ما سيكون لهم بعد وفاته بعدة قرون ٠ من ملك واسع عريض يستمد قوته وجلاله من معين النبوة وعون السماء ٠

وكأنه ـ عليه السلام ـ كان يعرف أنهم مع ذلك لن يذكروا هــذه النعمة العامة ، ولن يشكروا الله عليها ٠ فقـــال ما يحكيه القرآن عنـــه « اذكروا نعمة الله عليكم ٠٠ »

وكأن المسيح ـ عليه السلام ـ كان يضع النقط فوق الحروف كما يقولون ـ حين قال لهم بعد ضياع ملكهم الى الأبد « دعوا ما لقيصر لقيصر وما لله لله » ٠

لقد بعث فيهم أنبياء كثيرون فلم يفلحوا فى تكوين مجتمع صالح منهم ، وكان مصيرهم فيهم ما أخبر به القرآن من أنه « كلما جاءهم رسول بما لا تهوى أنفسهم استكبروا ففريقا كذبوا وفريقا يقتلون » .

وقد آتاهم الله ما لم يؤت أحدا من العالمين ، فأنجاهم من آل فرعون ٠ ومن الغرق فى البحر ٠٠ ومن الجوع والظمأ فى الصحراء ، وآتاهم فى التوراة بشريعة تنظمهم ٠ وتحكمهم ٠ وتقودهم الى الخير ، وأدخلهم الأرض

المقدسة بعد أن كانوا لا يجدون مأوى يلجئون اليه · أو مستقرا يطمئنون فيه ، فلم يكن منهم ــ مع كل هذا ــ ذكر لهذه النعم أو شكر عليها ·

ومن ثم كان وعد الله أن يأخذهم بظلمهم وجرمهم ، وأن يقطعهم فى الأرض أمما ، وأن يبعث عليهم « الى يوم القيـــامة من يســـومهم سوء العذاب » ·

وكانت كلمة المسيح هى كلمة الصادق النصيح حين قال لهم « دعوا ما لقيصر لقيصر وما لله لله » ·

ولكن أين من يسمع صوت القران · ومن يؤمن بكلام المسيح ؟! ·

فتى موسى ··

كان يوشع بن نون وهو من سلالة يوسف عليه السلام هو فتى موسى الذى كان يصحبه فى كثير من أموره ، وهو الذى يعنيه القرآن فى قصة موسى مع العبد الصالح بقوله : « واذ قال موسى لفتاه لا أبرح حتى أبلغ مجمع البحرين أو أمضى حقبا » ·

وقد آل اليــه أمر بنى اسرائيل بعد وفاة موسى ، فســار على الخطة المرسومة والمنهج الذى سلكه سلفه ، ثم عبر بهم الى الأرض المقدسة بعد انتهاء المدة التى كتب الله عليهم أن يقضوها تائهين فى الأرض ··

وقد اختلف المفسرون فى أول بلد نزلوه واحتلوه من بلاد فلســطين فقال بعضهم انها « أريحا » وقال غيرهم انها « بيت المقدس » ، ولكنهم لم يختلفوا فى أن أول عمل قام به هؤلاء حين دخولهم أول قرية دخلوها هو عصيان الله · ومخالفة أمره · والتمرد عليه ·

فقد طلب اليهم أن يدخلوا بابها · أو باب القبة التى كانوا يصلون اليهــا · تائبين ســاجدين · داعين الله أن يحط عنهم ذنوبهم وأوزارهم « فبدل الذين ظلموا قولا غير الذى قيل لهم » ، وعاودتهم سجية المخالفة لكل أمر فيه خيرهم ، فلم يدخلوها ساجدين ــ وقد ذكرنا أن من معانى السجود الخضــوع واحناء الظهر ــ بل دخلوها فى هيئة غير الهيئة التى أمروا ان يكونوا عليها ، وكان عقابهم على ذلك أن أنزل الله عليهم وباء من

السماء • يذكر المفسرون أنه أهلك منهم فى ساعة واحدة أربعة وعشرين ألفا ، ويذكر القرآن أن الله أنزل عليهم « رجزا من السماء بما كانوا يفسقون » •

ومن ثم يظهر أن الأربعين سنة التى قضوها تائهين فى الصحراء • والتى يرى بعض العلماء أنها مدة الحضانة الأخلاقية لكل أمة لم تنفع فى تاديبهم وتهذيبهم واستئصال جذور الشر من نفوسهم • كأنهم طبعوا به وفطروا عليه ، أو كما يقال فى الأمثال : ما بالذات لا يتخلف •

من القراء واليهم

السيد المحترم الأستاذ العالم محرر « من معانى القرآن »

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته « وبعد » فأرجو الله الكريم أن يزيدكم علما وتوفيقا ، حيث اننى من المتتبعين لدروسكم العذبة المفيدة بجريدة « الشعب » الغراء حول موضوع « من معانى القرآن » واننى أرجو لو تفضلتم – أن يشمل حديثكم بعض معانى الآيات الكريمة الآتية عن بنى اسرائيل ، ولكم الشكر الجزيل مع الدعاء بالتوفيق ، وفيما يلى بيانها :

أولا : من سورة القصص الآيتان ٥ و ٦ وهما « ونريد أن نمن على الذين استضعفوا فى الارض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين (٥) ونمكن لهم فى الارض ونرى فرعون وهامان وجنودهما منهم ما كانوا يحذرون (٦) » •

ثانيا : من سورة السجدة الآيتان ٢٣ ، ٢٤ وهما : « ولقد آتينا موسى الكتاب فلا تكن فى مرية من لقائه وجعلناه هدى لبنى اسرائيل (٢٣) وجعلنا منهم أئمة يهدون بأمرنا لما صبروا وكانوا بآياتنا يوقنون (٢٤) »•

ثالثا : من سورة الدخان الآيات ٣٠ ، ٣١ ، ٣٢ : وهى « ولقد نجينا بنى اسرائيل من العذاب المهين (٣٠) من فرعون انه كان عاليا من المسرفين (٣١) ولقد اخترناهم على علم على العالمين (٣٢) » .

هذا وأرجو التفضل بمراعاة ما تحته خط أحمر • والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

عبدالله المهندس صلاح الدين
وكيل المراقبة الاقليمية للشئون
البلدية والقروية بالاسكندرية

قصة فى كلمات ..

أولا ..

قلت فى كلمة سابقة ان الآية الواحدة من القرآن تكشف للمتأمل فيها . والناظر اليها ما يكشف المجهر من ملايين الدقائق والحقائق التى تجتمع فى ذرة من جسم . أو نقطة من دم أو قطرة من ماء .

وقد وقفت عند الآيتين اللتين وقف عندهما السيد المهندس عبد الله صلاح الدين وهما قوله تعالى : « ونريد أن نمن على الذين استضعفوا فى الأرض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين ، ونمكن لهم فى الأرض ونرى فرعون وهامان وجنودهما منهم ماكانوا يحذرون » فوجدت قصة حياة بنى اسرائيل من بدء اضطهادهم فى عهد فرعون وهامان الى قمة مجدهم فى عهد داود وسليمان تتركز فى هذه الكلمات ..

فقد كانوا أذلاء مستضعفين ثم من الله عليهم بالخلاص من ربقة الذل والاستعباد ، فكان الخلاص مما كانوا فيه منة من الله عليهم ، ولم يكن حقا لهم عليه كما يفهم من قوله تعالى : « وكان حقا علينا نصر المؤمنين » .

ثم كان من هؤلاء أنبياء كثيرون يهدونهم ويرشدونهم كما تصرح بذلك آية « وجعلنا منهم أئمة يهدون بأمرنا لما صبروا » فكان خليقا بهم أن يرتفعوا الى درجة الامامة والزعامة ، ولكنهم كان شأنهم مع الأنبياء ما ذكرناه وكررناه « فريقا كذبوا وفريقا يقتلون » .

ثم كان من الله معهم آخر اختبار ، فأورثهم أرض الكنعانيين وغيرهم من سكان البلاد الأصليين ، ومكن لهم فى الأرض زمن داود وسليمان بعد أن عاشوا مئات السنين فى تنقل وتجوال وترحال ، ولم يكن ذلك نتيجة قتال واستبسال . وانما كان ثمرة نبوة سخر الله لها الريح والطير والجبال كما سنرى عند الحديث عن داود وسليمان .

وقد لقى فرعون وهامان وجنودهما من هؤلاء ما كانوا يحذرون من سوء المآل بسبب ما انتهى اليه أمرهم مع هؤلاء وغيرهم من العتو والغلو والطغيان والتأله بدليل قوله تعالى « فحشر فنادى ، فقال أنا ربكم الأعلى ، فأخذه الله نكال الآخرة والاولى » فان الفاء فى قوله « فأخذه الله » تدل على أن هلاكه بالغرق كان النتيجة المترتبة على الكفر والتأله والطغيان ، ولم يكن تكريما وتعظيما لبنى اسرائيل كما قدمنا .

ثانيا ..

أما قوله تعالى « ولقد آتينا موسى الكتاب فلا تكن فى مرية من لقائه وجعلناه هدى لبنى اسرائيل ، وجعلنا منهم أئمة يهدون بأمرنا لما صبروا وكانوا بآياتنا يوقنون » فيمكن أن نفهم منه ما يلى :

أولا : ان هاتين الآيتين ـ وهما مكيتان ـ نزلتا على النبى صلى الله عليه وسلم فى بدء الدعوة الى الاسلام ، وقد كان النبى فى دهشة من أن يطلب اليه جبريل وهو أمى ـ أن يقرأ ، والقراء يعرفون هذه القصة ويذكرون رد النبى عليه بقوله ما أنا بقارىء ..

فى هذا الجو النفسى كان قوله تعالى : « وانك لتلقى القرآن من لدن حكيم عليم » وقوله : « ولقد آتينا موسى الكتاب فلا تكن فى مرية من لقائه » الى آخر الآيتين ، ليطمئن قلبه ـ صلى الله عليه وسلم الى أن ما يتلقاه من الله حق لا شك فيه ، والى أن هذا الكتاب من عند الله « لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه » .

وكأنه تعالى يقول لنبيه عليه السلام . ليس بعجيب ولا غريب أن تتلقى كتابا من الله ، فلا تكن فى شك من لقائه ، فقد آتينا موسى من قبلك كتابا وجعلناه هدى لبنى اسرائيل ، فكان منهم أئمة يهدونهم ويرشدونهم الى ما فى الكتاب من حكم وأحكام بأمر من عندنا ، وكانت هذه الامامة موقوته بالزمن الذى تحملوا فيه الصبر . وتجملوا باليقين .

ثانيا : اذا قرن قوله تعالى فى بنى اسرائيل « وجعلنا منهم أئمة يهدون بأمرنا لما صبروا وكانوا بآياتنا يوقنون » بقوله سبحانه فى المسلمين « وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا » ، فهم أن عامة المسلمين فى موضع الامامة والزعامة بين عامة الناس ، وان خاتم الانبياء والمرسلين فى الموضع الذى اختاره الله له بين حملة الديانات والرسالات .

ثالثا ـ من الواضح أن المراد بالأئمة فى الآية الثانية هم الأنبياء من بنى اسرائيل ، وما كان أكثر صرعاهم بالأيدى الأثيمة التى امتدت اليهم، وما أكثر الأيدى التى تلوثت بدم الجريمة فى بنى اسرائيل .

اختيار للاختبار

وثالثا :

قلت فى كلمة سابقة ان الذهب والتراب يتفاضلان فى تقديرنا على أساس الحاجة اليهما . والمنفعة فيهما ، ولا يتفاضلان فى تقدير الله لأنه لا يحس حاجة ، ولا يسعى الى منفعة ، وقد خلق بنو اسرائيل كما خلق جميع الناس من ذكر وأنثى ... من آدم وحواء .. من ماء وطين . من هذه الأرض التى يقول الله فيها : « منها خلقناكم وفيها نعيدكم ومنها نخرجكم تارة أخرى » .

وعلى هذا الأساس يمكن السيد عبد الله صلاح الدين أن يفهم من قوله تعالى فى بنى اسرائيل « ولقد اخترناهم على علم على العالمين » ان الاختيار للاختبار . لا للايثار ، وان هذا الاختبار لم يكن لمعرفة شيء كان مجهولا لله ، فانه ــ جل شأنه ــ يعلم كل ما كان . وكل ما سيكون قبل أن يكون ، وانما كان الاختبار لاشهار أمرهم واظهارهم على حقيقتهم، حتى تقوم عليهم الحجة . فلا يجدوا سبيلا الى المعذرة ، وطلب المغفرة ، وحتى يعرف الناس أمرهم فلا ينخدعوا بهم .

فقوله تعالى « على علم » بعد قوله : « ولقد اخترناهم » للاحتراس حتى لا يقع فى روع بعض الناس أن هذا الاختيار كان وضعا للشيء فى غير موضعه ، ولا يكون ذلك الا عن جهل أو غفلة أو عبث . تعالى الله عن ذلك ، لهذا كان قوله تعالى « على علم » مشعرا بأن الاختيار كان للاختبار، وأن الاختبار كان للاعذار . واقامة الحجة واظهار أمرهم لغيرهم ..

ومعاذ لله والحق والاسلام أن نهمل ــ فى ضجة الحديث عن عامة بنى اسرائيل ــ الاشادة بفريق منهم يقول الله فيهم « ومن قوم موسى أمة يهدون بالحق وبه يعدلون» والامة الجماعة ، فقد كان منهم صالحون كما يقول الله « وقطعناهم فى الارض أمما منهم الصالحون ومنهم دون ذلك وبلوناهم بالحسنات والسيئات لعلهم يرجعون » .

فليذكر القراء معنى «وبلوناهم» ليلوح لهم معنى «ولقد اخترناهم» .

نظام عام ..

عندما دخل يوشع بن نون فتى موسى مع قومه الارض المقدسة قسم لهم ما احتلوه منها ، وقام بأمرهم حتى لقى ربه ، ثم كان النظام العام الذى ساد مجتمعهم عدة قرون يقوم على أربعة أركان .

أنبياء يستمدون الوحى من السماء . ويتولون ارشاد القضاة .

وقضاة يحكمون فيما يقع بين بنى اسرائيل من خصومات ومنازعات

وحكام ينفذون أوامر القضاة ، ويقومون على حراسة الامن وحماية المجتمع .

وقوم يخضعون لهذا النظام عرفوا بالمكر والغدر والفساد ، ولم تفلح فى اصلاحهم معجزات الانبياء . وقوانين السماء .

وكان بنوا اسرائل مع جيرانهم من العرب والعدنانيين والفلسطينيين والآراميين فى نزاع دائم . وهم لازم ، فلم يدعهم أولئك أو هؤلاء يطمئنون فى الارض التى نزلوها أو احتلوها ، بل شنوا عليهم الغارات تلو الغارات حتى أقلقوا مضاجعهم ، فكان هؤلاء تارة ينجحون فى صدهم وتارة يفشلون ، وكانوا اذا اشتبكوا معهم فى معركة أخذوا معهم التابوت وهو صندوق كان فيه بقية من ألواح التوراة المكسورة ـ تيمنا به وتبركا بما فيه .

ثم دخلوا مع الفلسطينيين بأسدود فى حرب بالقرب من غزة فدارت عليهم الدائرة ، وأخذ منهم التابوت ، ووضع فى مكان بيت « داجون » وهو معبد لاله كانت رأسه راس انسان ، وجسمه جسم سمكة كما يذكر الرواة .

وعاد بنوا اسرائيل بذل الهزيمة . وعار الاسر . وخيبة الأمل ، ثم جمعوا شتات فلولهم المنهزمة ، واستجمعوا شجاعتهم المتوهمة وقالوا « لنبى لهم ابعث لنا ملكا نقاتل فى سبيل الله ، قال هل عسيتم ان كتب عليكم القتال ألا تقاتلوا قالوا وما لنا ألا نقاتل فى سبيل الله وقد أخرجنا من ديارنا وأبنائنا . فلما كتب عليهم القتال تولوا الا قليلا منهم والله عليم بالظالمين » .

بداية الملك ونهايته :

نبى .. وملك

.. كان النبى الذى لجأ اليــه بنو اسرائيل ليعين لهم ملكا عليهم يدعى « صمويل » .

وكان الملك الذى آل اليه أمرهم يدعى « شاول » أو « طالوت » .

كان صمويل يعرف ما عرف عن قومه من جبن لازم لا يكاد ينفك عنهم كما يفهم من قوله لهم فيما حكاه القرآن عنه « هل عسيتم ان كتب عليكم القتال الا تقاتلوا » .

وكانوا مخدوعين فى أنفسهم أو خادعين لنبيهم حين قالوا ما يحكيه الله « وما لنا ألا نقاتل فى سبيل الله وقد أخرجنا من ديارنا وأبنائنا » فانهم ما لبثوا حين رأوا العدو أن قالوا « لا طاقة لنــا اليوم بجالوت وجنوده » .

ثم كان لهم الملك كما طلبوا ، وتحقق ما كان يراه موسى من خلال الغيب حين قال لهم قبل أربعة قرون « اذكروا نعمة الله عليكم اذ جعل فيكم أنبياء وجعلكم ملوكا » .

لكن هذا الملك لم يكن فيهم ثمرة اجتهــاد أو جهاد أو عصــبية وانما كان نعمة من الله ومنحة ســماوية ، وســنرى فى قصة طالوت وداود وسليمان أن هذا الملك القصير كان ثمرة للنبوة ، ولم يكن بالنسبة لهؤلاء نتيجة فتوة أو قوة ..

وكان طالوت أو « شاول » دباغا يبحث عن حمير ضاعت لأبيه ، ثم أعياه البحث فتوجه الى النبى « صمويل » ليجد عنده خبرها . ويدله على مكانها ، ولم يكد صمويل يراه . ويقيس طوله بعصاه . حتى عرف أنه الملك المنتظر ، وأخبره بما سيئول اليه أمره ، ثم التمسه فى اليــوم

الثانى فوجده مختبئا بين الأمتعة . يخشى أن يراه بنوا اسرائيل فيوسعوه سخرية منه . وتندرا عليه . وتفكها به .

وصح ما توقعه « شاول » من بنى اسرائيل ..

فلم يكد يظهر مع صمويل أمامهم . وتراه أعينهم حتى هاجوا وماجوا وقالوا « أنى يكون له الملك علينا ونحن أحق بالملك منه ولم يؤت سعة من المال » فأجابهم نبيهم بقوله « ان الله اصطفاه عليكم وزاده بسطة فى العلم والجسم والله يؤتى ملكه من يشاء والله واسع عليم » .

(آية الملك)

لم يقتنع بنوا اسرائيل بما سمعوا من كلام نبيهم « صمويل » وطال بهم اللجاج والحجاج حول تعيين طالوت ملكا عليهم ..

فقال لهم نبيهم : « ان آية ملكه أن يأتيكم التابوت فيه سكينة من ربكم وبقية مما ترك آل موسى وآل هارون تحمله الملائكة ان فى ذلك لآية لكم ان كنتم مؤمنين » .

وكانت قلوبهم متعلقة بهذا التابوت الذى أخذه الفلسطينيون منهم فى معركتهم الأخيرة بالقرب من غزة ــ كما قدمنا ــ فلما فوجئوا به يعود اليهم شعروا بالارتياح والانشراح ، وغمرتهم السكينة والطمأنينة ، وألقوا بزمام أمرهم الى طالوت أو « شاول » فكان أول اسرائيلى يمكن أن يطلق عليه اسم ملك بنى اسرائيل .

وجمع طالوت الجنود ليحارب بهم أعداءهم . ويسترد منهم ما غنموه من أموال وديار بنى اسرائيل ، ثم سار بهم فى طريق وعرة مقفرة حتى شارف النهر فحذرهم ــ قبل أن يعبروه ــ من الاسراف فى الشرب منه وقال لهم ما يحكيه القرآن عنه « ان الله مبتليكم بنهر فمن شرب منه فليس منى ومن لم يطعمه فانه منى الا من اغترف غرفة بيده » .

ولكن أين يقع هذا النصح من قوم اعتادوا أن يعصوا أنبياءهم وأن يكونوا مع شهواتهم حيث تكون .. ؟ لقد كاد يضنيهم الظمأ . فلن تفوتهم

هذه الفرصة لينقعوا غلتهم بما يرون من ماء عذب زلال ، بل كان منهم ما يحكيه القرآن بقوله « نشربوا منه الا قليلا منهم »

ثم كان من هـذا القليل جيش طالوت الذى صـحبه الى مبارزة الأعداء ، ومع هذا لم يلبثوا ـ حين رأوا كثرة عددهم وعلى راسهم جالوت أن قالوا « لاطاقة لنا اليوم بجالوت وجنوده » وعاودهم الجبن الذى قعد بآبائهم عن طاعة موسى حين طلب اليهم أن يدخلوا الأرض المقدسـة فقالوا « ان فيها قوما جبارين وانا لن ندخلها حتى يخرجوا منها »

(طالوت وجالوت)

كاد طالوت ينهزم بجيشه حين سمع دعـاة الهزيمة من قـومه يقولون « لا طاقة لنا اليوم بجالوت وجنوده » ولكن حال دون ذلك صيحة أخرى هتف بها رجال مؤمنون وقالوا : « كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة باذن الله والله مع الصابرين » .

ويذكر القرآن أن هؤلاء حين برزوا لجالوت وجنـوده قالوا « ربنـا أفرغ علينا صبرا وثبت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين »

ويذكر بعض الرواة أن الجيشين التحما فى معركة أو عدة معارك لم يرجح فيها جانب على جانب ، فبرز جالوت يتصدى ويتحدى ونادى طالوت ليخرج إلى مبارزته على أن يكون للقاتل مملكة المقتول .

ولكن طالوت تهيب أن يلقاه ، ولم يجرؤ على مواجهته ، فنادى فى عسكره من قتل منكم جالوت ، زوجته ابنتى . وجعلته شريكا لى فى ملكى ، فلم يجرؤ كذلك واحد منهم على لقاء جالوت .

ثم حدثت المعجزة أو النجدة السماوية .

فقد ذهب شاب صغير الى اخوته وهم يحاربون مع طالوت ثم سمع بما وقع من جالوت ، فتقدم الى طالوت وطلب منه أن يأذن له بمبارزة هذا الجبار الذى يتحداه ..

ويذكر بعض الرواة أن النبى « صمويل » أوحى الله اليه بأن ولدا

من أولاد « أيشى » سيقتل جالوت ، فتفقده حتى عرفه ، ثم بعث به الى طالوت .

وعلى اية حال لقد تقدم هذا الشاب لملاقاة هذا المارد الجبار ، ورفض ما قدم له من فرس وسلاح ودرع ، وقال ان لم ينصرنى الله فلن يغنى عنى هذا السلاح شيئا ، ثم أخذ مقلاعه ومضى ..

ولما أبصره جالوت أدخل الله فى قلبه الرعب منه — على ما كان يتمتع به من قوة وبأس — فقال له : أتقاتلنى بالمقلاع كما تقاتل الكلاب ..؟

قال داود : نعم . وقذفه بحجر أصاب جبهته ، ثم وثب عليه وانتزع السلاح منه وجز به رأسه ، ثم كان ما يحكيه القرآن بقوله « فهزموهم بإذن الله وقتل داود جالوت وآتاه الله الملك والحكمة وعلمه مما يشاء »

(الغدر دائما ..)

طارت شهرة داود بين بنى اسرائيل وعظمت منزلته فيهم ، فلم يجد طالوت مناصا من أن يزوجه ابنته ، ويجعله المقدم بين رجال الحرب من قومه ..

ولكنه ما لبث أن تغير قلبه عليه ، بعد أن أحس تعلق بنى اسرائيل به ، فعمل على التخلص منه قبل أن يتطلع الى الملك ولم يلق بالا الى ما كان يسمعه من ابنه « يوناثان » من ثناء على داود واشادة باخلاصه فى خدمته ، بل أضمر فى نفسه الغدر ، واحتال للايقاع به ، فلم يظفر منه بما كان يريد .

بعث به فى كثير من المعارك ليقتل فى واحدة منها ، فعاد اليه ظافرا فى جميعها ، وازداد الاعجاب به . والثناء عليه بين قومه .

ودبر مع جنوده وأعوانه مؤامرة للفتك به . والقضاء عليه ، فلم تنجح المؤامرة فى تحقيق غرضه ، بل نجح داود فى النجاة منها ، ولم يقصر مع ذلك فى التنكيل بأعدائه وأعداء قومه ..

وكان داود كلما أصاب نجحا فتح فى قلب الملك جرحا ، فرأى أن

يهرب بعد أن أيقن أن الملك مصمم على قتله ، ولـكنه كان كالمستجير من الرمضاء بالنار .. !

فقد انتهى به المسير الى أعداء الملك الألداء . فعادوا به اليه وحرضوه على قتله ، ليشفوا نفوسهم بمصرع داود أمام أعينهم بعد أن صرع منهم الكثير فى الحروب التى اشتبك فيها معهم ..

ولكن داود تظاهر ــ كما يذكر الرواة بالجنون ، فوقع فى روع الملك أنه كذلك ، وظن أن القدر قد تولى اراحته منه دون أن يحمله تبعة قتله أمام الناس ، فأمر غلمانه بابعاده ، ولامهم على أن أدخلوا عليه فتى مجنونا فى بيته ..

وخرج داود من بيت طالوت على ألا يعود اليه .

ولكن تقدير الله كان فوق تقدير طالوت .

ولم يكن المقدار فيما علمته .. ليسعد عبدا أوبقته ذنوب .

(داود فى مغارة)

لجأ داود بعد أن خرج من بيت طالوت الى مغارة نائية فى مكان بعيد عن طالوت وشره ..

ولحق به اخوته وأهل بيته ، ثم تبعهم كل متضايق ومدين كما يقول الرواة ــ حتى تكون منهم جمع كبير ، فانتقل بهم داود الى مكان آخر فى ارض يهوذا ــ كما يقولون أيضا ــ

وسمع طالوت بأمر داود فلام رجاله على عدم اخباره بأمره ، وقتل الكهنة الذين اتهموا بمشايعة داود والتعصب له ، ثم أخذ يتحين الفرص للايقاع بداود ومن معه ..

ولنختصر هذا الجانب من ذلك التاريخ بحوادثه وأحداثه فليس من غرضنا أن نعرض سلسلة الحوادث لتسلية النفس ، وتزجية الفراغ وانما نعرض للمعالم الواضحة فى تاريخ هؤلاء لنستخلص منها العبر ، فنقول ان طالوت لم يتمكن ــ بكل ما دبر من مؤامرات من القضاء على

داود والفتك به وبرجاله .. ولما يئس داود من صلاح حاله معه ذهب الى الفلسطينيين وطلب من ملكهم أن ينزله فى قرية من قراه كى يقيم بها هو ورجاله ، فأجابه الملك الى ما طلب ، ورأى فى ذلك فرصة لعقد هدنة معه يأمن بها قوته وبأسه .

ولكن داود لم يكد يقيم فى هذه القرية حتى وجد طالوت ينهض لمحاربة الفلسطينيين مرة أخرى . فخرج معه برجاله على الرغم من كل ما حدث منه ليعينه على حرب الفلسطينيين ، ولكن طالوت مع ذلك تخوف منه . وسمع لنصيحة قادة جيشه . فرده بعد مسيرة ثلاثة أيام كما يذكر الرواة .

وعاد داود الى القرية التى خرج منها فوجد الفلسطينيين قد انقضوا عليها ، وسبوا نساءها وأطفالها وكل شىء فيها ، ثم أحرقوا مابقى منها ، فجد فى اثرهم . وأفحش فى قتلهم . واسترد منهم ما أخذوه ..

وفى هذه الأثناء كان طالوت قد انهزم جيشه ، وقتل مع ثلاثة من بنيه ، وجلا بنو اسرائيل عن المدن القريبة من مكان المعركة وسكنها الفلسطينيون ، وبدأ الجو يخلو لداود ..

(خوارق ومعجزات)

لم يكن داود يعلم أنه سيحارب مع جيش طالوت .

ولم يكن قد جرب الحرب قبل ذلك فى معركة من المعارك ولكنه مع هذا كان شديد البأس عظيم القوة . مؤيدا من الله ..

فقد قيل فيما قيل عنه فى أثناء صغره : انه جاء لأبيه يوما فقال له : يا أبت . لقد كنت بين الجبال . فوجدت أسدا رابضا . فركبته . وأخذت بأذنيه . فلم يصبنى بشر . فقال له ابوه : هذا خير يريده الله بك .

ولن نمضى مع هذه الأخبار التى استفاضت عنه قبل أن يصير اليه زمام الملك ، فقد تثور حولها الريب والظنون ، وانما نشير بها الى ما كان له من بأس وقوة وأحوال لم تعرف فى انسان عادى .

وقد ذكر القرآن ــ وهو حق لا يأتيه الباطل ــ أنه كان ذا أيد وقوة، وان الله ألان له الحديد ، وأنه سخر له الجبال والطير ، وأنه شد ملكه وآتاه الحكمة وفصل الخطاب ، وذلك حيث يقول الله فيه « وسخرنا مع داود الجبال يسبحن والطير وكنا فاعلين ، وعلمناه صنعة لبوس لكم لنحصنكم من بأسكم » وحيث يقول : « ولقد آتينا داود منا فضلا ياجبال أوبى معه والطير وألنا له الحديد ، أن اعمل سابغات وقدر فى السرد » وحيث يقول : « واذكر عبدنا داود ذا الايد انه أواب » ، « وشددنا ملكه وآتيناه الحكمة وفصل الخطاب »

كان الملك اذن ملك داود لا ملك بنى اسرائيل .

وكان بمعجزات وخوارق سماوية لا بجهود العصابات الاسرائيلية .

وكان ثمرة نبوة مؤيدة من السماء ، لا ثمرة لهذه الشجرة الملعونة فى الأرض .

اسمعوا وعوا ..

أمضى داود سبعة أعوام قبل ان تتم له السيطرة على بنى اسرائيل فقد كان ينازعه الملك والسيادة « الشبوشت » بن طالوت بعد وفاة أبيه ، ثم عجل القدر بنهايته فأراح داود منه . وأخلى الجو أمامه ، فانطوى تحت لوائه عامة بنى اسرائيل ، وانتقل الى « صهيون » وهو تل او حصن يقوم على تل ، وبنى هناك مدينة أطلق عليها اسمه ..

ومن ثم كان « صهيون » هو منزع الفكرة الصهيونية ، وكان اسمه الحلم الذى يداعب خيال هؤلاء الموزعين فى كل ارض بأمل العودة الى « صهيون » .

ونسى هؤلاء الحالمون الواهمون أن تلك الدولة لم تكن ثمرة طبيعية للمجتمع الفاسد الذى كان يتكون من آبائهم وأجدادهم ، وانما كانت كما أشرنا ــ ثمرة نبوية ومعجزة سماوية ، فقد ألان الله الحديد لداود ، فعمل منه دروعا سابغات ، وعلمه منطق الطير ، وآتاه الحكمة . وسخر له الجبال يسبحن معه بالعشى والاشراق ، ثم كان ابنه سليمان تجرى بأمره الريح . وتخضع له الجن . وتسمع له الطير ، وتذعن لأمره

الشياطين ، وقد ذكر القرآن كل ذلك فقال عن عمل الجن معه « ومن الجن من يعمل بين يديه باذن ربه » وقال عن تسخير الشياطين له « والشياطين كل بناء وغواص » وذكر أن المبانى الضخمة . والعمائر الفخمة . والهيكل الذى كان يفاخر به بنوا اسرائيل غيرهم . من عمل هذه القوى الخفية فقال : « يعملون له ما يشاء من محاريب وتماثيل وجفان كالجواب وقدور راسيات » وقال : « وحشر لسليمان جنوده من الجن والانس والطير فهم يوزعون »

لهذا لم يكن عجيبا أن ينهار هذا الملك بعد موت سليمان وأن يعود بنوا اسرائيل كما كانوا الى الأسر والتشرد ، فيعدو عليهم بختنصر ويسوقهم أسرى الى « بابل » ثم يعودون ليقعوا فى قبضة اليونان . ثم الرومان ثم يعودون الآن لتدور عليهم الدائرة ، ويتحقق فيهم وعد الآخرة كما يفهم من قوله تعالى « فاذا جاء وعد الآخرة ليسوءوا وجوهكم وليدخلوا المسجد كما دخلوه أول مرة » .

الداء والدواء ..

ان داء الفرقة هو الوباء الذى حمله الاستعمار وأذنابه الى صفوف العرب والمسلمين وهو الذى مكن لأسرائيل أن تقوم بينهم الآن كما مكن لها أن تقوم فى قديم الزمان .

وقد ذكر هذه الحقيقة دافيد بن غوريون فى مقدمة الكتاب السنوى لحكومة اسرائيل عام ١٩٥٢ كما يقول الاستاذان « هانى الهندى ، ومحسن ابراهيم » فى كتابهما « اسرائيل » فقد نقلا عن ابن غوريون ما يلى :

جاء احتلال فلسطين من قبل يوشع بن نون فى وقت كانت فيه القبائل فى فلسطين وعلى حدودها غارقة فى صراع دام بينها ، وكان على اليهود أن يمضوا سنوات طويلة يصارعون هذه القوى . حتى أقاموا مملكة اسرائيل بقيادة شاول « طالوت » وداود ، ولكن هذه المملكة لم تعش الا لجيلين من الزمن ، ولقد خدم التنافس الدائم بين مصر وبابل مملكة اسرائيل خدمات جلى فى الحفاظ على بقائها واستمرارها لأمد طويل ..

هذه هي الحقيقة وهذا هو الداء ، فهل قرأ ذلك اخواننا في الأردن والعراق وفي كل بلد يعيش فيه عرب ومسلمون .. ؟

وهل يعرف الذين يتصايحون بالنعرات الاقليمية في مصر أو في العراق أو في لبنان أو في أي بلد يعيش فيه عرب ومسلمون انهم بذلك يفسحون لأعدائهم الطريق الى ذبحهم . وسفح دمائهم ، وبناء دولتهم على جماجم رجالهم وأعراض نسائهم ..

يا قومنا أجيبوا داعي الله «واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا» واذكروا الحفاة الجياع من اخوانكم الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم بغير حق .

ان ما قاله ابن غوريون هو نفس معنى ما قاله « شاس بن قيس اليهودي » حين وجد الاوس والخزرج مجتمعين على الود والاخاء بعد العداوة والبغضاء . فغاظه أن يؤلف الاسلام بينهم وقال : مالنا مع هؤلاء اذ اجتمعوا من قرار .

فمتى يعود المسلمون الى حبل الله يعتصمون به ليعودوا كما كانوا « أشداء على الكفار رحماء بينهم »

(بداية النهاية)

كان ملك داود على ما انتهى اليه من قوة وسلطان يحمل في بنائه نذير فنائه ، ولعله علم بهذه الحقيقة من الزبور الذي كان يترنم بقصائده وأناشيده ، فقد جاء فيه ما يحكيه القرآن ولا ينكره الانجيل « ان الأرض يرثها عبادي الصالحون » .

بل ان دعاء ابنه سليمان من بعده كان يشعر بهذه الحقيقة . ويشير اليها ، فقد حكى القرآن عنه أنه قال « رب اغفر لي وهب لي ملكا لا ينبغي لأحد من بعدي انك أنت الوهاب » ، ثم كان له ما تطلع اليه من ملك واسع وجاه عريض ، بفضل من الله لا أثر فيه لبني اسرائيل ، وحسبنا في التدليل على هذا ــ فوق ما ذكرناه وكررناه ــ أن نشير الى قصته مع ملكة سبأ ، فقد قال لمن حوله « أيكم يأتيني بعرشها قبل أن يأتوني مسلمين . قال عفريت من الجن أنا آتيك به قبل أن تقوم من مقامك واني عليه لقوي

أمين . وقال الذى عنده علم من الكتاب أنا آتيك به قبل أن يرتد اليك طرفك فلما رآه مستقرا عنده قال هذا من فضل ربى ليبلونى أأشكر ام أكفر » .

وفى هذه العبارة الأخيرة التفسير اللائح الواضح لكل ما أنعم الله به على بنى اسرائيل فى ذلك التاريخ البعيد الطويل ، فقد كان يختبرهم بالسيئات والحسنات ، فلم يكن منهم الا ما عرفوا به من غدر ومكر وكفر ، وكان أنبياؤهم يذكرونهم بما أنعم الله به عليهم فلا يذكرون ولا يشكرون ولا يعتبرون .

ثم كان من الله معهم أن أقام لهم ملكا لا يقع فى وهم واهم أو حلم حالم ، فسخر الجن والانس والطير فى ارساء قوائمه . وبناء دعائمه فكان من هؤلاء ما عرفوا به ، ولم يتخلوا عنه من لؤم الطبــاع . وفســـاد الأوضاع وشره الأطماع .

ومن ثم كان أول حديث من القرآن لبنى اسرائيل ما ذكرناه . ووقفنا عند بعض آياته « يابنى اسرائيل اذكروا نعمتى التى انعمت عليكم وأوفوا بعهدى أوف بعهدكم واياى فارهبون » .

وكان هذا الحديث بعد الحديث عن ابليس وقصته مع آدم ، كأن هؤلاء من ابليس وجنوده بمنزلة الأبناء من الآباء . وسنعود الى تفسير ما وقفنا عنده من آى الذكر الحكيم .

أما بعد ..

فقد كان هذا العرض الموجز ــ على طوله ــ لهذا التاريخ القديم من حياة بنى اسرائيل استجابة لرغبة أبداها كثير من القراء ، ووجدت فى نفسى مثلها لعدة اعتبارات منها : ــ

أولا ــ المبادرة بازالة الشبهات التى علقت بأذهان العوام من آيات منثورة فى القرآن حسبوها اشادة ببنى اسرائيل ، وهى عنــد التأمل الدقيق العميق تشهير بهم . ونعى عليهم ، تذكير لهم ولغيرهم من الناس بما كان من الله معهم . وما كان منهم مع الله ومع أنبيائهم ..

ثانيا ــ الكشف عن سجاياهم وطواياهم التى عرفوا بها . وعاشوا

عليها من قديم الزمان حتى الآن ، لكى يعرف القراء من ابنـاء العـرب والمسلمين صورة هؤلاء كما يرسمها القرآن ، فانه المرآة الالهية الصادقة التى ترى فيها الحقائق كما برأها الخالق .

ثالثا ـ التمهيد لشرح ما وقفنا عنده من آيات متلاحقة تمثل كل واحدة منها طورا من أطوار حياة بنى اسرائيل ، وتستـــوعب ــ على ايجازها ــ كل مالقوه وذاقوه من ألوان السيئات والحسنات .

رابعا ـ تفنيد ما توهموه وزعمـوه من أن الارض المقدســـة حق كتب الله لهم ، والارض كما قال لهم موسى فى مصر « لله يورثها من يشـاء من عباده » وكما وجدها داود فى الزبور « ان الارض يرثها عبـــادى الصالحون » وهى من قبل ومن بعد لم تكن لهم ولا لآبائهم دارا أوقرارا ، فقد كان التنقل والتجوال والترحل والتشرد طابع حياتهم منذ كانوا حتى الآن .

خامسا ـ بيان أن الملك الذى اظلهم فترة قصيرة من الزمان كان ثمرة النبوة ، ولم يكن بالنسبة لهؤلاء نتيجة اجتهاد أو جهاد أو عصبية .

هذه هى بعض الاعتبارات التى دفعتنى الى الاستطراد فى الحديث عنهم ، وسنعرض لموقفهم من الاسلام والمسلمين عندما تحين المناسبة فى مواطنها من القرآن .

(المخترعات الحديثة)

سيدى الاستاذ صاحب الفضيلة محرر باب « من معانى القرآن » بالشعب . السلام عليكم ورحمة الله وبركاته « وبعد » .

فانى من المتتبعين قراءة باب (من معـــانى القرآن) ومن المعجبين به لسهولته وايجازه . مما يجعله يثبت فى العقول ، وانى ياسيدى أرجوك أن ترحم ضعاف الايمان من أن تتزعزع عقيدتهم الاسلامية بما يقرءونه عن المخترعات الحديثة كالأقمار الصناعية والصواريخ الموجهة . وصناعة قطع غيار للجسم ، والعمل على اطالة العمر ، وغير ذلك من مختلف الاختراعات . مما يجعلهم يتشككون فى القدرة الالهية وغاب عنهم قوله تعالى « ويخلق مالا تعلمون » .

سيدى الاستاذ : أرجوك أن تسخر قلمك فى هذه الأيام لانقاذ الاسلام والمسلمين من أراجيف المرجفين وتضليلهم ، وأن تؤيد أقوالك ياسيدى بالآيات القرآنية التى تثبت بعـــد تلك الاختراعات عن أن تمس الدين . وهو العقيدة التى تملأ قلوب المؤمنين ، ولا يزعزعها أى شىء اطلاقا ، ولكم من الله الأجر ، ومن القراء الشكر ، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

ابراهيم محمد لبيب
رئيس قلم سابق بالأوقاف

ياسيدى الفاضل ان القرآن لا يزال يتحدى الناس جميعا أن يخلقوا ذبابا فيقول : « يأيها الناس ضرب مثل فاستمعوا له ان الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذبابا ولو اجتمعوا له ، وان يسلبهم الذباب شيئا لا يستنقذوه منه ، ضعف الطالب والمطلوب »

والقرآن يهيب بالناس جميعا أن ينظروا ، وأن يفكروا فى خلق السموات والأرض ، وأن ينتفعوا بما خلقه الله لهم فيها ، فسينتهى بهم النظر الى الايمان والسلم . والخير العميم .

بل ان القرآن ينبه أذهان الناس فى كل موضع منه الى أن الله لم يخلق شيئا فى هذا الوجود عبثا أو باطلا ، بل كل شىء فيه خلق لوظيفة يؤديها ، فعلى الانسان أن يبحث عنها ويستقصيها . ويعمل على أن ينتفع بها ..

فقد أودع الله فيه عقلا يضىء له الطريق الى معرفتها ، ويكشف له السبيل الى السعادة فى الأولى والآخرة .

وليقرأ الأستاذ ابراهيم محمد لبيب ــ وكل من يقرأ ــ قوله تعالى : « ان فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهـــار لآيات لأولى الألباب ، الذين يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم ويتفكرون فى خلق السموات والأرض ربنا ما خلقت هذا باطلا سبحانك فقنا عذاب النار » وقوله تعالى : « أفلم ينظروا الى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها ومالها من فروج ، والأرض مددناها وألقينا فيها رواسى وأنبتنا فيها من كل زوج بهيج ... الخ » .

ان الصواريخ والأقمار الصناعية وما اليها من كل هذه المخترعات الحديثة ــ على مالها من قيمة عظيمة وأثر بالغ الخطر فى الحضارة الانسانية ــ

لاتساوى عند أهل الفهم والعلم جناح بعوضة أو خلية حية فى جسم أى انسان أو حيوان ..

عيبنا ــ نحن المسلمين ــ فى الجهل بكتابنا مع انه الكتاب الذى لم يدخله تحريف أو تزييف ، وانما كان الانحراف فى سوء الفهم ، واستغلاق العقول دون العلم ، حتى فهمنا من ذكر الله مجرد حلقات تقام فى المساجد ، ولم نفهمه عملا عقليا ينظر ويعتبر ، ويرى فى كل ما خلق الله دليلا على قدرته وحكمته ، ثم يقول عن دراية واسعة وبصيرة مستنيرة « ربنا ما خلقت هذا باطلا سبحانك » .

تجربة قاسية ..

وقد كنت أقرأ قول الله تبارك وتعالى فى القرآن الكريم : « أيحسب الانسان أن لن نجمع عظامه ، بلى قادرين على أن نسوى بنانه » فيحضرنى ما قيل عن اختلاف بصمات أصابع الناس من جميع الألوان والأجناس . حتى بين التوأمين المتساويين فى الخلق والتكوين . فأقنع بالحكمة فى ايثار هذا الموضع من جسم الانسان على ماعداه .

ثم شاء الله ــ وله الحمد على كل حال ــ أن يطير طرف أصبع لى فى باب سيارة أغلق عليه دون عمد ، فماذا كان منى ، وماذا كان من الطب معى .. ؟

ان فتح البطن فى عملية جراحية ، بل ان أية عملية جراحية فى الجسم أو العظم من جسم الانسان . قد يقوم بعدها الجريح سليما معافى ملتئم الجرح بعد أسبوعين أو ثلاثة ، ولكن هذا البنان الذى طارت منه قطعة من لحم وعصب . كأنما التقطها منقار طائر . لم يبرأ بعد خمسة وأربعين يوما . بل بقى حتى الآن وبعد مضى عام ونصف عام ناقص التكوين مخدر الأحساس ، لا أجد فيه الشعور الذى أجده فى بقية الأطـــراف والحواس .

ومن ثم فهمت فوق فهم . وعلمت فوق علم لماذا اختار الله هـــذا الموضع بالذات حين قال فى تقرير أمر البعث بعد الموت : « أيحسب الانسان أن لن نجمع عظامه . بلى قادرين على أن نسوى بنانه » .

أكان محمد عليه السلام يعرف دون معلم او ملهم دقة التركيب العجيب فى هذا الموضع من جسم الانسان ، أم أنه كان كما يقول الله : « وانك لتلقى القرآن من لدن حكيم عليم » ٠

مرحبا بالطب ٠ وبكل علم من العلوم الكونية يشترك معنا فى تفسير آيات الله التى يزخر بها القرآن ٠ ويشير اليها بقول الله فيه « سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم انه الحق » ، ونعوذ بالله أن نكون ممن قال الله فيهم « ولقد ذرأنا لجهنم كثيرا من الجن والانس لهم قلوب لايفقهون بها ولهم أعين لايبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها أولئك كالأنعام بل هم أضل » ٠

التفسير بالعلم ٠٠

وقد ضمنى مجلس بمنزل صديق كريم ، ثم دار الحديث حول تفسير القرآن بالعلم الحديث ، فقال : دكتور كبير وأديب مشهور : أنا لا أرى تفسير القرآن بالعلم ٠ لأن قضايا العلم تتغير ، وقد يبطل بعضها بعضا ، ويلغى اللاحق منها السابق ، ومن ثم لا تصلح أساسا يقام عليه تفسير سليم ٠٠

قلت : ان القرآن من عند الله ، فلا تتعارض حقيقة علمية مع قضية من قضاياه ، وقد أنزله الذى يعلم كل جهر وسر ، فلا يكون قوله ــ مع الايمان بهذا ــ الا الصدق والحق ، وهذا يفهم من قوله تعالى : « قل أنزله الذى يعلم السر » وقوله « أفلا يتدبرون القرآن ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا » ٠

قال : ان ما نسمعه ونقرؤه من مسائل العلم على أنه حقائق ٠ قد يصبح فى يوم من الايام وهما من الاوهام ، فكيف نقيم تفسير القرآن على مسائل لم يكتب لها الاستقرار ، وقد يصيبها التعديل او التبديل ٠٠

قلت : هناك الى ذاك حقائق كثيرة لا سبيل الى انكارها ، لانها ثمرات استقراء واستقصاء وتجارب ، فاذا رأينا فيها ما يكشف عن جوانب فى القرآن لم تعرف من قبل ، فما يمنع من الاسترشاد بها فى تفهمه والانتفاع به ٠٠ ؟

ان محاولة عزل القرآن عن أضواء العلوم الحديثة قد يكون من ورائها رغبات مشوبة بالغرض والمرض ، فان هذه الأضواء تزيده تألقا فى أعين الناظرين اليه والمتأملين فيه ، وبذلك يزداد الايمـان به والحرص عليه ، وهذا ما لايرضى عنه اولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى ، ورأوا فى هذا الكتاب ما رأوا · من قوة دافعة نافعة جمعت العرب على مبادئه ، ودفعت المسلمين على هداه ، وجعلت منهم خير أمة أخرجت للناس ·

ان القرآن معجزة علمية فوق أنه معجزة أدبية واصلاحية ، وحسبنا دليلا على هذا أنه أنزل على رجل لم يكن يعرف القراءة والكتابة ، ثم طال به الزمان ، وصار العلم ما صار اليه الآن ، فلم يغير منه ، ولم يبدل فيه ، بل بقى القرآن كما كان « لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد » ·

فى ندوة ··

وبهـذه المناسـبة أذكر تجربة من نوع آخر عرضـت لى منذ عدة أسابيع ·· فقد دعيت الى الاشتراك فى ندوة من الندوات التى تعقد فى المدارس لبحث مشاكل الشباب ·

وعلى الرغم من أننى لم أخطر بموضوع البحث أكد على زميل صحفى ضرورة حضور هذه الندوة لخطورة ما سيقال فيها كما قال ··

ثم كانت المفاجأة أن يكون دورى فيها بيان رأى الدين فى « العادة السرية » ، وأن أرد دون أن أستعد على ما يوجه الى من أسئلة ··

وانعقدت الندوة وتكلم طبيبان فاضلان · ومربية فاضلة عن الأخطار والمضار التى تنشأ من هذه العادة ، مثل ضعف العقل والجسم والقوة الجنسية · و · و · الى آخر ما ذكروه من أعراضها وأمراضها ··

ثم تكلمت كما تكلموا · فبينت الحديث على أساس أن الاسلام دين الفطرة ، وأن عمله مع الغرائز هو تقويمها · وتنظيمها · وتوجيهها الى ما فيه خير الفرد والمجموع ··

وجاء دور الاسئلة فانهالت علينا · وانهالت من كل جانب ، وكان

منها هذا السؤال الذى يتصل بموضوع الحديث عن القرآن ، وهو : هل فى القرآن الكريم آية تنص على تحريم العادة السرية ٠٠ ؟

وأذكر أننى قلت فيما قلت ان مستوى القرآن أرفع من أن يهبط الى الحديث عن هذه الصغائر والحقائر ، ولكن قضاياه العامة ٠ وقواعده الكلية واشاراته الموحية وعباراته الهادية ، تسع ما كان وما هو كائن ٠ وما سيكون من شئون الكون والحياة ، ثم ذكرت قوله تعالى « والذين هم لفروجهم حافظون الا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم فانهم غير ملومين ٠ فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون »

وعندما وصلت الى قوله تعالى « فمن ابتغى وراء ذلك » كان فى نبرة صوتى ٠ واشارة يدى ٠ ما نبه السامعين واسترعى أنظارهم الى ما وراء ذلك ٠٠

وهكذا نجد فى القرآن النور الهادى « للتى هى أقوم » كما يقول الله فيه ٠

فى دار السودان

ودعيت الى القاء محاضرة فى دار السودان عن بدء خلق الانسان فرأيت أن أخرج عن المألوف المعروف فى اعداد المحاضرة ٠ والقائها مكتوبة أو محفوظة ٠٠

فاننى بين طلاب سعدت بلقائهم فى فصول الدراسة بالازهر وطلاب فى الجامعة يسعدنى أن القاهم فى دارهم ٠ وزملاء يسعدنى أن أشركهم فى الحديث معى بين أبنائهم وزملائهم ٠٠

ثم كانت المحاضرة ٠ أو المحاورة ٠ أو المناظرة أمتع مما كنت أتوقع ٠٠

قام أحد الشبان يدافع عن منطق ابليس حين أبى أن يسجد لآدم وقال لربه وهو يخاطبه « أنا خير منه خلقتنى من نار وخلقته من طين »

وسألنى قائلا : ألم يكن ابليس على حق فى تبرير موقفه من آدم ؟ أليست النار المضيئة خير من الطين المعتم المظلم ٠٠ ؟

وأذكر اننى قلت فيما قلت : ومن أدراك أن النار خير من الطين ؟ هل تنبت النار الزهور التى تراها وتنعم بشذاها ٠٠ ؟ هل تخرج منها الأشجار وتتدفق منها الانهار ، وتتالق على لهبها ما ترى من خضرة الزرع ونضرة الحقول والمروج ٠٠ ؟

وقام آخر يسأل : اذا صحت نظرية « داروين » وثبت أن أصل الانسان قرد ٠ فكيف نخرج من التعارض الذى نجده بين القرآن وبين هذه الحقيقة العلمية ؟

وأذكر أننى قلت فيما قلت : ان هذه النظرية ـ أولا ـ مازالت حتى الآن مبنية على فروض وظنون ، وقد عارضها علماء كثيرون بكثير من الحجج والبراهين فلم تصل بعد الى درجة الحقائق العلمية الثابتة المقررة ٠

وثانيا : لو كانت صحيحة ما خرجت بالانسان عن أصله الذى نص عليه القرآن فأنا وأنت كل انســان وحيوان من ماء وطين ، ولو حللت أجسامنا الى ماء وملح وجير وحديد ٠٠ و ٠ والى آخر العنـاصر التى تقوم عليها وتتركب منها لوجدناها من هذه الأرض التى يقـول الله فيها « منها خلقناكم وفيها نعيدكم ومنها نخرجكم تارة أخرى » ٠

وثالثا ـ لماذا نتشبث بهذه الآراء ، ونثير حولهـا اللغط وهى أن صحت تسوء ولا تسر ، وتردنا الى الوراء ، ولا تدفعنا الى الامام ٠٠ ؟ أليس خيرا لنا أن نطمئن الى ظاهر قول الله سبحانه « لقـد خلقنا الانسـان فى أحسن تقويم » ؟ وقوله تعالى « ولقد كرمنـا بنى آدم وحملناهم فى البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا » ٠

(قطع الغيار ٠٠)

وقد فكرت كما فكر غيرى فى قطع الغيار التى وصل تقدم الطب فيها الى درجة أن يجعلها ملتحمة بجسم الانسان ، تؤدى فيه الوظيفة التى كان يؤديها العضو الاصلى ، فلم أجد فيها مدعاة شك ٠ أو ريب فى الايمان بالله كما قد يتوهم المتوهمون ٠٠

ذلك لأن مقلة العين التى نقلت من جسم رجـل حى حـكم عليه بالاعدام الى محجر عين رجل آخر فقـد بصره ، ليست من صنع انسان ،

ولاذ يد لأحد فى تكوين خلقها • وتزويدها بالاجهزة العصبية التى تضلها بالمخ أو الدماغ أو النخاع ، وكل ما للطب من عمل فى هذا هو النقل والتلفيق • والاسترشاد بما يعرف من حكم العليم الحكيم فى التطبيق ، وتوخى الوضع الدقيق ، وما بعد ذلك من التحام عصب بعصب ، واتصال شبكة بشبكة • وارتباط عضو بعضو أو جسم • انما هو من عمل الله • لا من عمل أحد سواه ••

ومالنا نذهب بعيدا وقد جربنا أو جرب الكثير منا الأسنان الطبيعية والأسنان الصناعية ، ورأينا الزهرة التى يصنعها الله من طين الأرض يتضوع شذاها • ويتألق سناها ، والزهرة التى يصنعها الانسان من ورق أو غير ورق ليخدع نفسه بمظهرها • ويتغافل عن جوهرها •

ان كل شىء صنعه الله بيده لا يمكن لمخلوق أن يصنعه ، وكل شىء أبدع الله خلقه لا يمكن لانسان أن يبدعه ، بل ان مجرد ايجاد خلية واحدة حية فوق طاقة الطب وقدرة الانسان أيا كان . فى أى زمان • وأى مكان •

وليس معنى هذا أن نغمض أعيننا • ونسد آذاننا • ونعطل عقولنا ونهمل العمل على استخدام ما خلقه الله فى الأرض التى تقلنا • وفى السماء التى تظلنا ، بل معناه ألا نشعر بالغرور كلما وجدنا خيطا من النور ، فمن وراء تفكيرنا ، وتدبيرنا وتقديرنا قوة عليا ندين لها بكل ما نصل اليه ، أو نحصل عليه ، بل ندين لها بكل ما نملك من أدوات الادراك والعمل فى هذه الحياة •

وهذا هو القرآن يملأ الآذان بهذا النداء الذى ينبعث من السماء « هذا خلق الله فأرونى ماذا خلق الذين من دونه » •

هذه القصص :

قبل أن أشرع فى شرح ما وقفنا عنده من آيات أحب أن أجيب على سؤال تلقيته من قارىء يقول فيه : ما رأيكم دام فضلكم فيمن يقولون ان محمدا تلقى عن « بحيرى الراهب » بعض ما جاء فى القرآن من قصص وأحكام •؟

والجواب عن ذلك ـ من هذه القصة وحدها ـ يكفى السائل وغيره فقد ظللنا نحكيها ونرويها ونستقيها من معانى القرآن قرابة ثلاثة أشهر

ولما نفرغ منها ، فاذا لوحظ مع هذا أن محمدا عليه السلام لم يمكث مع بحيرى فى رحلته الى الشام الا ساعة من نهار كان من العبث ضياع الوقت فى تفنيد هذه الفرية المتداعية المنهارة ، واذا لوحظ مع ذلك أن القرآن حافل بقصص كثيرة أخرى كقصة ابليس مع آدم • وقصة الملائكة معه ، وقصة مريم ابنة عمران وعيسى عليه السلام ، وزكريا ويحيى • وادريس• وقصة أهل الكهف ، وقصة موسى مع العبد الصالح • وقصة نوح مع قومه • و • و • الى آخر ما لا يتسع لسرده هذا النطاق ، اذا لوحظ هذا ظهرت قيمة هذه الخرافة السخيفة التى يروج لها الأغبياء من أعداء الاسلام •• بل ان القرآن يقف من القصص الموجودة فى غيره من الكتب موقف المصلح لها • المصحح لما داخلها من تحريف وتزييف •

بل ان ما يتفق منها مع ما جاء فيه نلحظ فى طريقة عرضه لها اختلافا لا يمكن رده الى عمل انسان فى مثل حياة رجل أمى لا يقرأ ولا يكتب ولا يحسب مثل محمد عليه الصلاة والسلام •

فمثلا قصة أصحاب الكهف عند أهل الكتاب ذكر فيها أنهم لبثوا فى كهفهم ثلثمائة سنة شمسية ، وجاء فى القرآن أنهم « لبثوا فى كهفهم ثلاث مائة سنين وازدادوا تسعا » ثم على حسب الفرق بين عدد السنين الشمسية والقمرية فتبين أنه تسع سنين كما جاء فى القرآن •

هذا اذا لم نذكر مغزى الاختلاف فى طريقة العرض والبسط • والتفصيل •

والقرآن ـ مع هذا ـ لايزال يتصدى ويتحدى ، ولايزال علم الأولين والآخرين يقف منه موقف الخادم له لا الحاكم عليه •

رسالة أخرى

١ ـ أرجو أن يعلم السادة القراء الذين كتبوا الى يستفسرون عن بعض آيات فى بنى اسرائيل لم نعرض لها فى القصة التى ذكرناها أننا سنتحدث عنها بتفصيل طويل عندما نصل الى موضعها باذن الله ، وليطمئن الأستاذ محمد كامل شكيبان الوكيل الأول لجمعية الطريق المستقيم بكفر الدوار الى أننا سنوافيه بما يبتغيه عند الحديث عن تفسير قول الله تعالى « كل الطعام كان حلا لبنى اسرائيل الا ما حرم اسرائيل على نفسه من قبل أن تنزل التوراة » •

٢ ـ يقول الأستاذ محمد طلعت بالفيوم : وما رأى فضيلتكم فى قول الله لسيدنا عيسى عليه السلام: « وجاعل الذين اتبعوك فوق الذين كفروا الى يوم القيامة » ؟ ثم يجيب على سؤاله من حيث لا يشعر بأن الآية صريحة فى أن أتباع عيسى هم الذين آمنوا حقا برسالته، وأنه عبد الله آتاه الكتاب وجعله نبيا ، ثم يعود فيسأل : كيف يكون لليهود السيطرة على كثير من أمم العالم فى عصرنا هذا ؟.

الجواب على هذا قول الله «ضربت عليهم الذلة أينما ثقفوا الا بحبل من الله وحبل من الناس وباءوا بغضب من الله وضربت عليهم المسكنة » وقد وصفهم الله بأنهم « ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل ويفسدون فى الارض » وليس لهم الآن من حبال الا الأموال يشترون بها الذمم والضمائر ، ويسيرون بها بعض الحكومات « فسينفقونها ثم تكون عليهم حسرة ثم يغلبون » .

٣ ـ وبعث الاستاذ حافظ عمارة وكيل ادارة جامعة عين شمس يؤيد ما قيل من أن هلاك فرعون لم يكن من أجل بنى اسرائيل ، وانما كان لتألهه وتجبره كما ذكرنا ، وأضاف الى ذلك استهانته بموسى وهارون وهما رسولا رب العالمين كما حكى القرآن عنه قوله : « أم أنا خير من هذا الذى هو مهين ولا يكاد يبين » وللاستاذ جزيل شكرى وتقديرى . وأسأل الله أن يتقبل دعاءه .

٤ ـ وكتب السيد عبد الرازق الجمال يعتب على لاهمالى الرد عليه فى تفسير عدة آيات ذكرها وقال : يا أستاذ .. يا شيخ .. يا عالم .. يالى ناكر اسمك .. الخ ، وأؤكد للسيد المحترم أننى لم أتلق منه خطابا قبل هذا ، وأنى ـ اذا مد الله فى عمرى حتى أصل الى موضوع الآيات التى ذكرها ـ سأوافيه بالشرح الذى ينشرح له صدره .

٥ ـ أما الذين طلبوا الى طبع ما وفقنى الله اليه فى كتاب ، فأشكرهم على جميل تقديرهم . وأرجوا أن أكون عند حسن ظنهم ، والله الموفق . والله المعين ..

تذكير ٠٠

والآن يحسن بنا أن نعود الى ما وقفنا عنده ، ونستأنف السير في عرض ما نستطيع فهمه من معانى القرآن على النهج الذى توخيناه ٠٠

لقد وقفنا عند قوله تعالى لبنى اسرائيل : « واذ أنجيناكم من آل فرعون يسومونكم سوء العذاب يذبحون أبناءكم ويستحيون نساءكم وفى ذلكم بلاء من ربكم عظيم »

ولعل من المناسب أن نربط هذه الآية وما يليها بما سبقها لكى نربط فى أذهان القراء وحدة النظام الذى قام عليه القرآن ٠٠

لقد بدأ القرآن بكلمة « الحمد لله رب العالمين » والحمد رأس الشكر ٠٠

ثم عاد بعد تفصيل الهداية والمهتدين ٠ وبيان الضلالة والضالين من الكافرين والمنافقين فقال : « يأيها الناس اعبدوا ربكم الذى خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون ، الذى جعل لكم الارض فراشا والسماء بناء وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقا لكم » وفهمنا من دلك أن الباعث على العبادة يجب أن يكون هو الشعور بالشكر ٠

ثم عاد بعد بيان مصير المؤمنين والكافرين فقال : « كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتا فأحياكم » ثم قال : « هو الذى خلق لكم ما فى الارض جميعا ٠٠ » ثم ذكر الناس بنعمة أخرى آثرهم بها على غيرهم فقال : «واذ قال ربك للملائكة انى جاعل فى الارض خليفة » ، ثم ذكر قصة الملائكة مع آدم ، وقصة ابليس معه ومع زوجته وكلتا القصتين يحتل فيها آدم وبنوه منزلة التكريم من الملائكة والحسد من ابليس وجنوده وينتهى سياق الكلام فى هذا المقام الى نتيجةٍ لا معدى عنها ، وهى ضرورة أن يشعر الناس نحو رب العالمين بوازع الشكر ٠

ثم اتجه الخطاب رأسا الى بنى اسرائيل بعد الحديث عن ابليس فكان أول أمر وجهه الله اليهم قوله « يابنى اسرائيل اذكروا نعمتى التى أنعمت عليكم ٠٠ » ٠٠ والغرض من الذكر الشعور بوازع الشكر ٠٠

ثم يعرض القرآن أطوار حياتهم التى اتسمت بما عرفنا من صفات الغدر والمكر ٠ والكفر ٠ ويذكرهم بنعم الله عليهم اذ أنجاكم ٠٠ واذ ٠ واذ ٠ وسنرى ما بعد اذ ٠

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

الدار القومية للطباعة والنشر

